ألبير كامو



الموت السعيد

ترجمة ... دريش

دار الآداب

الموت السعيد

البير كامو

الموت السعيد

رواية

ترجمة: عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١

الطبعة الثالثة
١٩٨٣

القسم الأول

الموت الطبيعي

الفصل الأول

كانت الساعة العاشرة صباحـاً ، وكان باتريس مرسو يسير بخطى منتظمة نحو دارة زغرو . في هذه الساعة كانت الممرضة قد خرجت الى السوق، وكانت الدارة مقفرة . كان ذلك في نيسان ، في صبيحة ربيعية جميلة متلألئة وباردة ، ذات زرقة صافية ومثلجة ، وشمس ساطعة باهرة ولكنها من غـير حرارة . امام الدارة ، وبين الصنوبرات التي كانت تغطي الكثبان ، كانت اشعة صافية تسيل على الجذوع . كانت الطريق مقفرة ، وكانت تصعد قليلاً . وكان مرسو يحمل حقيبة بيده ويتقدم في هالة هذا الصباح العالمي مخترقاً صوت خطاه الجاف على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم .

قبل الدارة بمسافة قصيرة ، كانت الطريق تنفتح على ساحة صغيرة مليئـة بالمقاعد والحدائق. وكانت نباتات ابرة الراعي الباكورية الحمراء وسط الاصبار الرمادية ، وزرقة السماء وجدران السور المطلية بالكلس ، كان ذلك كـله من الغضاضة والطفولة بحيث جعل مرسو يتوقف لحظة قبــل ان يستأنف الطريق الذي كان ينحدرمن الساحة نحو دارة زغرو . توقف امام العتبة ولبس قفازيه ، وفتح الباب الذي كان العاجز قد تركه مفتوحاً واغلقه بالطبع . وتقدم في الممر حتى إذا بلغ الباب الثالث الى اليسار دق عليـه ودخل . كان زغرو قابعـاً هناك ، على مقعد ، وعلى جدعات ساقية غطاء ، امام المدفأة ، تماماً في المكان الذي كان مرسو يحتله ليومين مضيا . كان يقرأ ، وكان كتابه يستقر على غطائه بينما كان يحدق بعينيه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمان عن اية دهشة ، بمرسو الواقف الآن امام الباب المغلق. كانت ستائر النوافذ قد سحبت وكانت تستقر

على الارض وعلى الاثاث وعلى زاوية الاشياء برك من الشمس . وخلف النوافذ ، كان الصباح يضحك على الارض المذهبة والباردة . وكان فرح كبير مثلـــج ، وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق وفيض من نور لا هوادة فيه ، تضفي كلها على الصبيحة وجهاً من البراءة والحقيقة . كان مرسو قد توقف وأحس بحرارة الغرفة الخانقة تأخذ بخناقه واذنيه ، فبالرغم من تبـــدل الطقس ، كان زغرو قد اشعل ناراً لاهبة ، وكان مرسو يحس بدمه يصعد حتى صدغيه ويضرب اطراف اذنيه . وكان الآخر ، صامتاً ما يزال ، يتابعه بعينيه . ومشى باتريس نحو الصندوق من الناحية الاخرى للمدفأة ، ومن غير ان يلقي نظره على العاجز وضع حقيبته على الطاولة . واذ وصل هنا ، احس بارتعاش خفي عند عرقوبيه . فتوقف ووضع في فمه لفافــة اشعلها بطريقة خرقاء بسبب يديه المقفزتــين . وسمع حركة خفيفة وراءه . التفت واللفافــة بعد في شفتيه . كان زغرو مـــا يزال ينظر اليه ، ولكنه كان قد اغلق اللحظة كتابه . وبينما كان مرسو يحس بالنار تلهب ركبتيه حتى الألم ، كان يقرأ العنوان مقلوباً « رجـــل البلاط » لبلتازار غراسيان . وانحنى من غير تردد على الصندوق وفتحه . كان المسدس يلمع بجميع منحنياته ، سواداً على بياض ، كقط معتنى به . وكان مرسو ما يزال يمسك برسالة زغرو وقد امسكها بيده اليسرى والمسدس باليمنى . وبعد تردد ، دس السلاح تحت ذراعه اليسرى وفتح الرسالة . كانت تحتوي على صفحة واحدة من ورق كبير القطع مغطاة ببعض الاسطر فقط بخط زغرو الكبير المقرّن :

« انني لا اقتل الا نصف انسان . وبودي ان لا يحفظ احد علي ضغينة من ذلك وان يجد في صندوقي الصغير اكثر كثيرا مما يلزم للتعويض على اولئك الذين خدموني حتى الآن ، بالاضافة الى ذلك ، فان بي رغبـــة في ان يكرّس لتحسين نظام المحكومين بالاعدام . ولكني اشعر ان ما اطلبه كثير . »

طوى مرسو الرسالة وهو منقبض . وفي تلك اللحظة ، اتى دخان سيكارته يخزّ عينيه بينما كان قليل من الرماد يتساقط على المغلف . ونفض الورقة ، ووضعها

بشكل بارز على الطاولة، واستدار ناحية زغرو . وكان هذا ينظر اللحظة الى المغلف بينما ظلت يداه القصيرتان العَضِلتان تحيطان بالكتاب . وانحنى مرسو وادار مفتاح الصندوق واخذ حزمة الاوراق التي لم يكن يُرى منها سوى حافتها من خلال غلافها المصنوع من ورق جريدة . وفيما كان سلاحه تحت ذراعه ملأ بيد واحدة حقيبته بانتظام. كان هناك اقل من عشرين رزمة من فئة المئة. وايقن مرسو انه كان قد أحضر حقيبة اكبر مما يجب. وترك في الصندوق حزمة بمئة ورقة . واذ أغلق حقيبته ، ورمى لفافته التي لم يستهلك سوى نصفها في النار ، امسك المسدس بيده اليمنى واقترب من العاجز .

كان زغرو ينظر الآن الى النافذة ، وسُمعت سيارة تمر برفق امام الباب، يرافقها صوت مضغ خفيف . وكان زغرو ، من غير ان يتحرك ، يبدو وكأنه يتأمل الجمال اللاإنساني كله لهذا الصباح النيساني . وحين احس فوهة المسدس على صدغه الايمن ، لم يحول عينية . ولكن باتريس الذي كان ينظر اليه رأى عينيه تمتلئان بالدموع . وكان هو الذي اغلق عينيه . تراجع خطوة الى الوراء واطلق. ظل لحظة مستندا الى الجدار وعيناه ما تزالان معلقتين . فاحس ان دمه ما فتيء يخفق عند اذنيه . ونظر ، كان الرأس قد سقط على الكتف اليسرى والجسم لم يكد ينحني، حتى ان زغرو لم يكن يُرى بعد ، وانما كان يُرى فحسب جرح هائل في تضاريس دماغه من عظم ودم . واخذ مرسو يرتعش، واستدار حول المقعد وتلمس اليد اليمنى فجعلها تمسك بالمسدس ورفعها الى مستوى الصدغ ثم تركها تسقط . سقط المسدس على ذراع المقعد ومن ثم على ركبتي زغرو . وفي هذه الحركة لاحظ مرسو فم العاجز وذقنه. كان يحمل التعبير الرصين والحزين نفسه اذ كان ينظر الى النافذة . وفي هذه اللحظة ، انبعث صوت بوق حاد امام الباب. ومرة اخرى، سُمع النداء اللاحقيقي . ولم يتحرك مرسو الذي كان ما يزال منحنياً على المقعد . وانبأ انطلاق سيارة برحيل الجزار . وأخذ مرسو حقيبته ، وفتح الباب الذي كانت قبضته تلمع تحت شعاع شمسي، فخرج خافق الرأس جاف اللسان، واجتاز باب الدخول، ومضى بخطى كبيرة. لم يكن هناك

أحد ، ما عدا فريق من الاولاد عند زاوية الساحة الصغيرة . وابتعد . وحين بلغ الساحة ، احس فجأة بالبرد فارتعش تحت سترته الخفيفة . وقد عطس مرتين فامتلأ الوادي الصغير باصداء واضحة ، ساخرة ، كان بلور السماء يرتفع بها رويداً رويداً . وبالرغم من انه كان يترنح قليلا ، فقد توقف وتنفس بقوة . ومن السماء الزرقاء كانت تتساقط ملايين الابتسامات الصغيرة البيضاء . وكانت تلعب على الاوراق التي كانت ماتزال مخضلة بالمطر على فُلَيْس الممرات الرطب ، وتنداح نحو البيوت ذات القرميد الدموي الغض ، وتصعد مجنحة نحو بحيرات الهواء والشمس حيث كانت تفيض الساعة . وكان هدير ناعم ينبعث من طائرة صغيرة كانت تبحر في الاعالي . وفي تفتح الهواء هذا وخصوبة السماء تلك ، كان يبدو ان مهمة الانسان الوحيدة تكمن في ان يعيش ، وان يكون سعيدا . كان كل شيء يصمت في كيان مرسو . وهزّته عطسة ثالثة فاحس بما يشبه حمى . واذ ذاك هرب من دون ان ينظر حوله يلفه صرير حقيبته ووقع خطاه . وحين وصل الى منزله ، وضع حقيبته في زاوية ، فتمدد ونام حتى منتصف الاصيل .

الفصل الثاني

كان الصيف يملأ المرفأ بالصيحات وبالشمس . وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف. وكان النهار يتفتح عند منتصفه ليسحق الارصفة بكل ثقل حرارته. وامام عنابر غرفة التجارة في مدينة الجزائر، كانت « سفن » ذات هياكل سوداء ومداخن حمراء تشحن اكياس قمح . وكان عطرهـا الغباري الخفيف يختلط بروائح القطران الكثيفة التي كانت شمس حارة تفتتحها. وامـام كوخ صغير تنبعث منه رائحة الدهان وشراب الانيسون، كان رجال يشربون وكان بهلوانات عرب يرتدون سراويل قصيرة حمراء يديرون ويقلبون اجسادهم على البـلاط الملتهب امام البحر، حيث تطفر الاشعة، ومن غير ان ينظروا اليهم. وكان عمـال الارصفة الذين يحملون الأكياس يدلفون على اللوحين المطاطيين اللذين كانا يصعدان من الرصيف الى مرفأ السفن الشاحنة . واذ يصلون الى اعلى، مقطوعين فجأة في السماء وعلى الجون، بين الروافع والصواري، كانوا يتوقفون لحظـة مبهورين تجاه السماء، تلتمع عيونهم في الوجه المغطى بطينية بيضاء من العرق والغبـار، قبل ان يندفعوا كالعميان في قعر السفينة، ذات روائـح الدم الساخن . وفي الهواء الملتهب، زأرت صفارة زئيراً متصلا .

وفجأة توقف الرجال على اللوح متبلبلين . ذلك ان احدهم كان قد سقـط بـين الرافدات التي كانت من التقارب بحيث تكفي لامساكـه . ولكن ذراعه التوت خلفه، فانسحقت تحت عبء الكيس المائل، فكان يصرخ من الالم . في هذه اللحظة، خرج باتريس مرسو من مكتبه . وعلى عتبـة الباب، قطع عليه الصيف تنفّسه، فتنشق بملء فمه المفتوح بخار القطران الذي كان

يجرح حلقه . وتوقف امام العمال . كانوا قد استخرجوا الجريح ، فاذا هـو منقلب على الالواح المغبرة، وقد ابيضت شفتاه من الالم وتدلت ذراعه المكسورة فوق مرفقه . وكانت شظية عظم قد اخترقت اللحم في جرح كريه كان الدم يسيل منه . وكانت قطرات الدم السائلة على طول الذراع تتساقط ، واحدة إثر الأخرى ، على الاحجار الملتهبة وهي تحدث صريراً خفيفاً يرتفع منه بخار. كان مرسو يتأمل ، جامداً ، هذا الدم عندما امسك احدهم بذراعه . كان هو « ايمانويل » صبي السباق . وكان يدله على شاحنـة كانت تتقدم نحوهم وسط جلجلة السلاسل والانفجارات . « هل نلحق بهـا » ؟

وركض باتريس . لكن الشاحنة تجاوزتها . وفي الحال ، اندفعا اثرهـا ، غارقين في خضم الضجيج والغبار ، لاهثين وأعميين ، ولكن على قدر من الصحو يكفيهما ليحسا انهما محمولان باندفاع الجري الجامح في ايقاع الروافع والآلات المجنون ، مصحو بين برقص الصواري عند الأفق وترنـح هياكل السفن المبقعة التي كانا يحاذيانها . وتعلق مرسو اولا ، وهو واثق من قوتـه وخفته ، وقفز على الطائر . وساعد ايمانويل لكي يجلس متدلي الساقين . ووسط الغبار الابيض والطباشيري ، والجو الخانق المضيء الذي كان يهبـط من السماء ، والشمس والديكور الخيالي الرحب للمرفأ المتليء بالصواري والمرافع السوداء ، انطلقت الشاحنة مبتعدة بكل سرعتها وهي تقفز بمرسو وايمانويل على بلاط المرفـأ اللامتساوي ، فكانا يضحكان حتى انقطاع النفس ، في دوار الدم كله .

حين وصلت الشاحنة الى بلكور ، نزل مرسو مع ايمانويل الذي كان يغني. كان يغني بصوت عال وناشز .

وكان يقول لمرسو :

– انك تفهم . هو شيء ما يصعد في الصدر عندمـا اكون مسرورا ، عندما استحم .

كان ذلك صحيحاً . فان ايمانويل كان يغني وهو يسبح ، وكان صوته الذي بح من الحصر فاختنق ازاء البحر ، يوقّع حركات ذراعيه القصيرتين العضلتين . وسلكا طريق ليون. كان مرسو يمشي بخطى واسعة ، فارع الطول ، مؤرجحاً كتفيه العريضتين العضلتين . وفي طريقته بوضع قدمـــه على الرصيف الذي سيجتازه، وانزلاق جنبيه لتفادي الحشد الذي كان ، في بعض اللحظات يحيط به ، كان المرء يحس انه امام جسد فتي وقوي بشكل غريب ، قادر على ان يحمل صاحبه الى اقصى درجات الفرح الجسدي . واذا ما استراح ، فقد كان يريح جسده على جنب واحد ، مع تكلف للمرونة طفيف ، على غرار رجل كان قد تعلم من الرياضة رشاقة الجسد . كانت عيناه تلمعـــان تحت قوسيْ حاجبيه البارزين قليلاً . وبينما كان يتحدث مع ايمانويل ، كان يشد على ياقته بحركة آلية ، وبرعشة متشنجة لشفتيه الملتويتين المرتجفتين، لكي تكشف عنقـــه.ودلفا الى مطعمها وجلسا ثم اكلا بصمت . كان الجو رطباً في الظـــل . وكان في المطعم ذباب واصطفاق صحون واحاديث.وقدتقدم نحوهما المعلم «سيليست »: كان طويلاً ومشورباً ، وكان يحك بطنه فوق مريوله الذي كان يسقطه فيما بعد. قال ايمانويل:

– كيف الحال ؟

فيقول سيليست :

– كالشيوخ .

ودار الحديث . وكان سيليست وايمانويل يتبادلان عبارات من مثل : « اوه ايها الزميل » وربتات على الكتف . وكان سيليست يقول :

– « الشيوخ » ، اترى ، انهم بلهاء . يقولون ان الرجل الحقيقي هو من كان في الخمسين . ولكنهم يقولون ذلك لأنهم في حوالي الخمسين . كان لي صاحب تنحصر سعادته بابنه . كانا يخرجان معاً . وكانا يسرفان في الانفاق . وكانا يذهبان الى الكازينو . وكان صاحبي يقول : لماذا تريدني ان اذهب مـــع جميع هؤلاء

الشيوخ ؟ انهم يروون لي كل يوم انهم تناولوا مسهلاً،وانهم يعانون من كبـــدهم . فالافضل ان اذهب مع ابني . وحين يعلق يوماً بفتاة مـا ، أتظاهر باني لا أرى شيئاً وأصعد في قطار . الى اللقاء وشكراً . انني سعيد، سعيد جـــداً » . كان ايمانويل يضحك. قال سيليست :

ـ بالطبع ، صحيح انه لم يكن مرجعاً عظيماً ولكنني كنت احبه كثيراً .. وتوجه الى مرسو قائلا :

ـ ثم انني افضل هذا على صاحب اعرفه . عندمـــا كان ينجح ، كان يحدثني وهو يرفع رأسه ويقوم بحركات صغيرة . اما الآن ، فهو اقـل زهواً ، لقد اضاع كل شيء .

قال مرسو :

ـ يستحق ذلك .

ـ اوه ! يجب ان لا يكون المرء مسرفاً في الحياة. لقد سعد بايامه، وكان على حق .. لقد كان لديه تسعة آلاف فرنك . آه لو كنت مكانه !

قال ايمانويل :

ـ ما كان عساك تفعل ؟

ـ كنت اشتريت بيتاً ريفياً . ووضعت قليلاً من الدبق على السرة وعلماً . وهكذا سأنتظر لأرى من اين تأتي الريح .

كان مرسو يأكل بهدوء، الى ان بدأ ايمانويل يقصّ على المعلم معركته الشهيرة في المارن .

ـ لقد جعلونا ، نحن الزواوين ، قنّاصة .

قال مرسو بوداعة :

– إنك تضجرنا .

– لقدقال القائد فيها : «هجوماً» او كنابعدذلك نهبط. كان ذلك شبيهاً بوهد ذي اشجار. وكان قد قال لنا بان نطلق ، ولكنه لم يكن امامنا احـــد . وعندها مشينا، الى الامام هكذا. ثم فجأة ، بدأت الرشاشات تطلق نيرانها . وتساقطنا بعضنـــا فوق بعض . كان هناك عدد كبير من الجرحى والاموات ، الى حد ان الدم المنساب في اعماق الوادي كان يكفي لعبوره في قارب . وكان هناك من يصرخ: «ماما ! كم كان ذلك فظيعاً » .

نهض مرسو ، وعقد عقدة بنشفته . وذهب المعلم يسجل فطوره بالطبشورة خلف باب المطبخ . كان هذا هو سجل حساباته . وعندمـــا كان يحدث اي احتجاج، كان يخرج الباب من مفاصله ويأتي بالحسابات على ظهره . وفي احدى الزوايا ، كان « رونيه » ، ابن المعلم ، يأكل بيضة برشت . قال ايمانويل :
– يا للمسكين ! انه مصدور !

وكان ذلك صحيحاً . فان رونيه غالباً ما كان صامتاً ورصيناً . لم يكن شديد النحافة . ولكن نظره كان براقاً في تلك اللحظة ، كان احـــد الزبائن يشرح له ان السل « يُشفى مع الوقت والاحتياطات » . كان يوافـــق ويجيب برزانة بين لقمتين . وجاء مرسو يرتفق المشرب على مقربة منه ليشرب قهوة . كان الآخر يتابع: « .. الم تعرف « جان بيريز » صاحب شركة الغاز ؟ لقد مات . لم يكن يشكو سوى رئة مريضة . ولكنه اراد ان يغادر المستشفى الى بيته . وهناك كانت زوجته . وزوجته كانت حصاناً، اما هو، فان المرض هو الذي كان قد احاله هكذا . انت تفهم . كان دائماً يعتليها . اما هي فـلم تكن تريد . ولكنه كان فظيعاً . وهكذا فان مرتين او ثلاثاً كل يوم كانت كافيـة

لأن تقتل رجلا مريضاً .

وتوقف رونيه عن الطعام ، وكانت قطعة من الخبز ما تزال بين اسنانه . كان يحدق في الرجل . وقال اخيراً :

– اجل ان الالم يأتي بسرعة . ولكن ذهابه يحتاج الى وقت .

وكتب مرسو اسمه باصبعه على المصفاة المغطاة بالبخار . ورف بعينيه . بين هذا المصدور الهادىء وبين ايمانويل المتخم بالاغاني ، كانت حياته تتأرجح كل يوم في روائح القهوة والقطران ، منفصلة عن ذاته وعن اهتمامه ، غريبة عن قلبه وعن حقيقته . فالاشياء ذاتها ، التي كان يمكن لها في مناسبات اخرى ، ان تثير حماسه ، كان يصمت عنها ما دام يعيشها ، حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه من جديد في غرفته . فيضع كل قوته وحذره ليطفىء شعلة الحياة التي تتأجج فيه .

كان المعلم يقول :

– اسمع يا مرسو . انت المتعلم تقول هذا .

قال باتريس :

– نعم . كفى . سوف تتذكر ذلك .

– اوه : انك تبدو نشيطاً ، هذا الصباح !

ابتسم مرسو ، واذ غادر المطعم ، اجتاز الطريق وصعد الى غرفته . كانت تقع فوق ملحمة للخيل . كان ، وهو منحن على شرفته ، يشم رائحة الدم ويستطيع ان يقرأ اللافتة . « الى اشرف مكسب للانسان » . تمدد على سريره ، واشعل لفافة ثم نام .

كان مرسو يعيش في الغرفة التي كانت تسكنها امه . كانا قد سكنا طويلا في هذه الشقة الصغيرة المؤلفة من ثلاث غرف . واذ اصبح وحيدا ، اجّر مرسو غرفتين لبراميلي من اصدقائه كان يعيش مع اخته ، وكان قد احتفظ لنفسه بافضل

غرفة . كانت امه قد توفيت في الخامسة والستين من عمرها . كانت جميلة ، وبسبب ذلك كانت تعتقد ان بامكانها ان تكون مغناجة وان تعيش برخاء وان تلمع . واذ ناهزت الاربعين ، ادركها مرض مريع ، فتجردت من اثوابها ومن زينتها ، واقتصرت على ارتداء قمصان المرضى ، مشوهة الوجه بانتفاخات فظيعة ، مسمرة تقريباً بسبب ساقيها المورمتين الخاملتين ، واخيراً نصف عمياء تتخبط بجنون في شقة بلا الوان كانت تتركها للأهمال . وكانت الضربة فجائية وحاسمة . لقد كانت مصابة بالسكري الذي كانت قد اهملته وزادته غنى بحياتها اللامبالية. ولقد كان هو مجبراً على ان يوقف دروسه وعلى ان يعمل. وحتى موت امه ، كان ما يزال يتابع القراءة والتفكير . وطوال عشر سنوات ، تحملت المريضة هذه الحياة . وكان هذا التعذيب قد استمر طويلا الى حد جعل الذين يحيطون بها يعتادون على مرضها وينسون ان بامكانها ان تنهار بسبب اصابتها الخطرة تلك . وماتت ذات يوم . وفي الحي ، كان مرسو موضع رثاء . كانوا يتوقعون الكثير منه عند الدفن . كانوا يتذكرون حب الابن الكبير لأمه . وكانوا يستحلفون الاقرباء البعيدين الا يبكوا لكي لا يحس باتريس بألمه يكبر . كانوا يبتهلون اليهم ان يحموه وان يتكرسوا له . اما هو ، فقدارتدى افضل ما امكنه واخذ يتأمل الترتيبات، وقبعته بيده . وقد رافق الموكب ، وحضر المراسم الدينية ورمى قبضة التراب وتقبل التعازي . مرة واحدة فقط اندهش وعبر عن استيائه من قلة السيارات المخصصة للضيوف . وكان هذا كل شيء . وفي اليوم التالي ، كان بالامكان رؤية هذا الاعلان على احدى نوافذ الشقة : « للايجار » . وهو الآن يعيش في غرفة امه . في الماضي ، كان للفقر بالقرب من امه نكهة عذوبة . فعندما كانا يلتقيان في المساء ويأكلان بصمت حول قنديل الكاز، كانت سعادة خفية تكمن في هذه البساطة وهذا الحصن.

كان الحي من حولها صامتاً . وكان مرسو ينظر الى فم امه التعب ويبتسم . وكانت تبتسم هي ايضاً، فكان يعود الى الاكل. وكان القنديل يدخن قليلا فتصلحه امه بالحركة المنهوكة ذاتها ، الذراع اليمنى وحدها ممدودة مرتدة الجسم الى الخلف. وكانت تقول :

– الست جائعاً بعد ؟ فيجيبها : « لا »

كان يدخن او يقرأ . في الحالة الاولى كانت امه تقول :

– بعد !

وفي الحالة الثانية :

– اقترب من القنديل ، انك ستتلف نظرك .

والآن ، على النقيض ، فان الفقر في الوحدة كانت بؤساً فظيعاً . وحين كان مرسو يفكر بحزن في الفقيدة ، كانت شفقته في الواقع ترتد اليه . كان باستطاعته ، ان يسكن بطريقة اكثر رفاهية . ولكنه كان متعلقاً بهذه الشقة وبرائحة الفقر فيها . هنا ، كان على الاقل ، يلتقي بما قد كانه . وفي حياة كان يسعى فيها الى ان ينمحي ، كانت هذه المجابهة القذرة الصابرة تتيح له ان يعود الى ذاته في ساعات الحزن والاسف . كان قد ترك على الباب قصاصة من ورق مقوى رمادي مهدب الطرف . كانت امه قد كتبت عليه اسمها بالقلم الأزرق ، وكان قد احتفظ بالسرير النحاسي القديم ، المغطى بالحرير وصورة جده بلحيته الصغيرة وعينيه الصافيتين الجامدتين. وكان على المدفأة تماثيل لرعاة وراعيات يحيطون بساعة قديمة معطلة وقنديل كاز لم يكن يشعله قط تقريباً . ولم يكن الديكور المريب لكراسي القش المجوفة قليلا وللخزانة ذات المرآة المصفرة ولطاولة الزينة الفاقدة احدى الزوايا ، لم يكن لهذا كله وجود بالنسبة

له لأن العادة كانت قد محت كل شيء . كان يتجول في ظل شقة لا تكلفه اي جهد . اما في غرفة جديدة ، فقد كان عليه ان يعتاد على الجديد ، وان يقاوم فيها ايضاً . وكان يريد ان يقلّص المساحة التي يمنحها للعالم وان ينام حتى يُستهلك كل شيء . وكانت هذه الغرفة تخدمه لتحقيق هذا الهدف؛ فقد كانت تطل من جهة على الطريق ومن جهة اخرى على سطيحة مغطاة دائماً بالغسيل . وفيما وراءها كانت تطل على حدائق صغيرة للبرتقال مرصوصة بين جدر عالية. في بعض الاحيان ، في ليالي الصيف ، كان يترك الغرفة يغمرها الظلام فيفتح النافذة على السطيحة والحدائق المظلمة . من الليل واليه ، كان اريج البرتقال يتصاعد قوياً جداً ويلفه بغلالاته الشفافة . في كل ليلة من ليالي الصيف ، كانت غرفته وكان هو نفسه يغرقان في هذا العطر اللطيف والمكثف في آن واحد . وكما لو انه كان ميتاً لأيام طويلة ، كان يفتح نافذته لأول مرة على الحياة .

استيقظ وفمه مليء بالنعاس ومغطى بالعرق . كان الوقت متأخراً جداً . سرح شعره وهبط مسرعاً وقفز في ترام . في الساعة الثانية وخمس دقائق كان في مكتبه . كان يعمل في غرفة كبيرة غطيت جدرانها الأربعة باربعمئة واربع عشر مشكاة كانت الاضبارات مكدّسة فيها . ولم تكن الغرفة قذرة ولا كريهة ، ولكنها كانت توحي في كل ساعة من ساعات النهار برقدة من شأنها ان تُبلي الساعات الميتة . كان مرسو يحقق في وثائق شحن البضائع ، ويترجم قوائم مؤونات المراكب الانكليزية . ومن الساعة الثالثة حتى الرابعة كان يستقبل الزبائن الراغبين بشحن الطرود . كان قد طلب هذا العمل الذي لم يكن في الواقع يروق له . ولكنه في اول الأمر كان قد وجد فيه باباً للخروج الى الحياة . لقد كان يجد فيه وجوهاً حية ومرتادين وممراً ، ونسمة يحس فيها اخيراً بقلبه يخفق. وهكذا كان يفلت من وجوه ضاربات الآلة الكاتبة الثلاث

ومن مدير المكتب السيد لانغلوا . احدى الضاربات كانت على قدر لا بأس به من الجمال. وكانت متزوجة منذ فترة وجيزة . اما الأخرى، فكانت تعيش مع امها، والثالثة كانت سيدة مسنة قوية ومحترمة كان مرسو يحب حديثها المزهر والتحفظ الذي كانت تبديه حول موضوع: « مصائبه » على حد تعبير لانغلوا. وكان لهذا الاخير مواقف حرجة ، كانت السيدة هربيون تنتصر فيها عليه دائماً . كانت تحتقر لانغلوا بسبب العرق الذي كان يلتصق بسرواله وبردفيه وبسبب الذعر الذي كان يعتريه امام المدير واحياناً على التلفون وهو يسمع صوت محام او شخصية مرموقة . وكان المسكين يحاول عبثاً ان يهدىء المرأة المسنة او ان يحظى على رضاها . وهذا المساء كان يترنح وسط المكتب . قال :

— « اليس صحيحاً ، يا سيدة هربيون انك تجدينني خفيف الروح ؟

كان مرسو يترجم كلمة «نبات» ويتأمل فوق رأسه المصباح وكمة المصباح المصنوع من الكرتون الاخضر المثنى . وكانت تجاهه روزنامة ذات الوان صارخة تحمل صورة « صفح تيرنوفاس Terreneuvas » . وكان مصفوفاً على طاولة مُبللة ونشافة ودواة ومسطرة . وكانت نوافذه تطل على كومات كبيرة من الاخشاب مجلوبة من النرويج بواسطة سفن شاحنة صفراء وبيضاء . كان يرهف السمع . خلف الحائط ، كانت الحياة تتنفس تنفساً كبيراً صامتاً وعميقاً على البحر وعلى المرفأ . وحرّره جرس الساعة السادسة ، البعيد جداً منه والقريب جداً في آن واحد . كان ذلك يوم سبت .

حين عاد الى منزله ، استلقى ونام حتى ساعة العشاء . قلى لنفسه بيضاً واكله رأسا من الصحن (من غير خبز لأنه كان قد نسي ان يشتري خبزا) ثم استلقى ونام في الحال حتى صباح اليوم التالي . واستيقظ قبيل الغداء . ورتب هندامه، هبط ليأكل ؛ وحين صعد ، حل كلمتين متقاطعتين وقص بدقة اعلاناً عن املاح كروشن ألصقه في دفتر مملوء بصور الأجداد المهرجين وهم ينزلون

درجات السلالم . واذ اتم ذلك ، غسّل يديه ووقف على الشرفة . كان العصر رائعاً. على ان البلاط كان دهنياً . وكان الناس قليلين ومسرعين ايضاً . اما هـو فقد كان يتابع بعينيه كل انسان بدقة ثم يتركه بعد ان يبعـد عن نظره ليعود لمارّ جديد . كانوا في بادىء الامر عائلات تتنزه ، منها عائلة من صبيين صغيرين في لباس البحارة ، البنطال تحت الركبتين ، مرتبكين في ثيابها الخشنة ، وفتـاة صغيرة ذات شريطة كبيرة وردية وحذائين اسودين مبرنقين . وخلفهم كانت ام مرتدية فستاناً من الحرير الكستنائي اشبه بحيوان هائل تلفه افعى ، واب اكثر تميّزاً ، ، عصاه في يده . بعـــد قليل مرّ شباب الحي ، شعورهم ملمّعة وربطات عنقهم حمراء ، ستراتهم مخصورة جداً ، في صدرها منديـــل مطرز واحذية ذات رؤوس مربعة . كانوا يذهبون الى دور السينما ، وسط المدينة ، وكانوا يسرعون نحو الترام وهم يضحكون ضحكات عالية . بعدهم ، اقفرت الطريق شيئاً فشيئاً . كانت الافلام قد بدأت في كل مكان . وكان الحي قـــد اخلي الآن للحانوتيين والقطط ، وكانت السماء ، بالرغم من صفائها ، صافيـة ، بلا اشراق فوق اشجار التين التي كانت تحيط بالشارع . وتجـاه مرسو ، اخرج بائع التبغ كرسياً امام بابه فاقتعدها وهو يستند بذراعيه على المسند . وكانت الحافلات المزدحمة منذ لحظات قـــد فرغت تقريباً . وفي القهوة « شي بيارو » كان الصبي يكنّس النشار في القاعة الفارغة . وادار مرسو كرسيه ووضعـــه كبائع التبغ . ودخن لفافتين الواحدة تلو الاخرى . ودخل الغرفة من جديـد فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد ليأكلها عندالنافذة. وبعد قليـل اظلمت السماء ثم انقشعت على الاثر . ولكن مرور الغيوم كان قد خلق على الطريق مـا يشبه وعداً بالمطر جعلها اكثر اظلاماً . عنـــد الخامسة ، وصلت الحافلات وسط الضجيج حاملة من ملاعب الضاحية ، عناقيد من المتفرجين متعلقين على المدرجات والحواجز . اما الحافلات التالية ، فقد اعادت اللاعبين الذين كانوا يُعرفون من حقائبهم الصغيرة. كانوا يهدرون ويغنونملء الرئتين ان ناديهم لن يفنى ابداً .

كثير منهم ارسل اشارات الى مرسو . وصاح احدهم « لقد هزمناهم » . فاكتفى مرسو بالقول : نعم، وهو يهز رأسه . وتكاثرت العربات بعـــد ذلك . بعضها كانت قد غطت بالأزهار جوانحها وراد"اتها . ثم مـــال النهار بعض الشيء فوق السقوف، فأصبحت السماء محمرة . ومـــع المساء الوليد ، انتعشت الشوارع من جديـــد . وكان المتنزهون يعودون . كان الأولاد المتعبـــون يبكون او يستسلمون للجر" . في هذه اللحظة أفرغت قاعات سينما الحي في الشارع موجة" من المشاهدين . وكان مرسو يجد فيما يقوم به الشبان من حركات مصممة ومتباهية التفسير اللاواعي لفيلم المغامرات الذي كانوا قد شاهدوه . اما الذين كانوا يعودون من دور المدينة ، فقد وصلوا بعد ذلك بقليل ، كانوا اشد رصانة، وبين الضحكات والتهريجات المقهقهة كان يبرز من جديد في عيونهم وفي هيئتهم نوع من الحنـــين لهذه الحياة ذات النمط المتألق التي كانت السينما قد فتحته لهم . ظـــلوا في الشارع يروحون ويغدون ، وعلى الرصيف المواجه لمرسو تكو"ن اخيراً تياران: كانت فتيات الحي المسترسلات الشعر يتماسكن بالاذرع فيشكلن احد التيارين، والشباب من جهة اخرى كانوا يطلقون النكات التي كن يضحكن لها وهن يُدرن رؤوسهن . كان الشبان الرصينون يدخـــلون المقاهي او يشكلون على الرصيف فرقاً كان الموج البشري الذي يجري يحاصرها كأنها جزر صغيرة . وها هـــو الشارع مضاء والمصابيح الكهربائية ، تسحب النجوم الأولى التي كانت تطلـــع في الليل . وتحت مرسو ، كانت الارصفة تمتد بكل حمولتها من الرجـــال والاضواء . وكانت المصابيح تلمّع البـــلاط الدهني، والحافلات ترسل لمسافات منتظمة انعكاساتها على شعر لماع او شفـــة رطبة وضحكة او سوار من فضة . بعد قليل ، مع الحافلات التي غدت اقـــل عدداً ، ومع الليل المسود فوق الاشجار والمصابيح ، فرغ الحي شيئاً فشيئاً، واجتاز القط الاول على مهـــل الشارع الخالي من جديد ، وفكر مرسو بالعشاء . لقد كان يشكو الـمـاً خفيفاً

في عنقه لأنه ظل وقتاً طويلاً مستنداً على ظهر كرسيه . وقدنزل ليشتري خبزاً وفطائر ثم أعدّ طعامه وأكل . وعاد الى النافذة . كان اناس يخرجون . وكان الجو قد ترطب . وارتعش فاغلق زجاجه وعاد الى المرآة ، فوق المدفـــأة . ما خلا بعض الامسيات التي كان يستقبل فيها مارت او يخرج معهـا ومراسلته مع صديقاته في تونس ، فان حياته كلها كانت تنتظم في منظور باهت تعكسه المرآة لغرفة يتجاور فيها مصباح كاز قذر مع كسرات خبز .

قال مرسو : يوم احد آخر ينقضي .

الفصل الثالث

عندما كان مرسو يتنزه في الشوارع ، مساء ، وكان فخوراً بان يرى الاضواء والظلال تتألق كذلك على وجه « مارت » ، كان كل شيء يبدو له سهـــلاً بشكل رائع ، قوته ذاتهـا وشجاعته . هذا الجمال الذي كانت تسكبه له كل يوم كأنها اكثر النشوات رهافة ، كان يكنّ لها العرفان بان تعلنه امـام الناس والى جانبه. ان تكون مارت تافهة ،لكان ذلك عذّبه العذاب نفسه وهو يراها سعيدة في رغبات الرجال ، كان سعيداً بان يدخل هذا المساء معها الى السينما ، قبيل بدء الفيلم ، بينما كانت القاعة ملأى تقريباً . كانت تتقدم أمامه ، تحوطها نظرات الاعجاب بوجهها المزدهر الباسم وجمالها العنيف. وكان ، وهـو يمسك قبعته من اللبدية في يده ، يشعر بارتياح خارق كأنما هو وعي داخلي لأناقتـــه الخاصة . وقد اتخذ هيئة متعالية ورصينة وبالغ في تهذيبـــه ، والانحرف لكي يتيح للعاملة ان تمر ، وخفض مقعد مارت قبل ان تجلس . فعـــل ذلك بسبب رغبة اقل بالتباهي مما كان يفعله بسبب هذا العرفان الذى كان يملأ قلبه ويفعمه حباً لجميع الكائنات وإذا كان قد اعطى العاملة شيئا مبالغاً به فلانه كذلك لم يكن يعرف كيف يعوض فرحه ولأنه كان يعبد بهذه الحركة اليومية معبوداً تلمـــع ابتسامته الباهرة كزيت في عينيه . وعند الاستراحة ، حين كان يجـــول في الصالة المغطاة بالمرايا ، فقد كان وجه سعادته هو ما تعكسه له الجدران،مالئة القاعة بصور رشيقة وراعشة لقامته الفارعة القاتمة وابتسامة مارت المرتديـة الوانا زاهية . صحيح انه كان يحب الوجه الذي كان يراه لنفسه على هـــذا النحو، والفم المرتعش حول اللفـافة والحمى المحسوسة في عينيه الغارقتين قليلاً ،

ولكن جمال انسان ما يعكس حقائق داخلية وعملية . وعلى وجهه يُقرأ مـــا يستطيع فعله ، ولو كان ذلك ثمنـــاً للاجدوى الرائعة لوجه امرأة . كان مرسو يدرك ذلك جيداً، مما كان يدغدغ غروره، ويبتسم لشياطينه الخفية.

حين بلغ القاعة ، فكر انه وحده لم يكن يخرج ابداً في فترة الاستراحة ، مفضلا التدخين والاستماع الى اسطوانات الموسيقى الخفيفة التي كانت تدار في تلك اللحظة . ولكن اللعبة ، كانت مستمرة هـــذا المساء ، وجميع الفرص لتمديدها ولتجديدها كانت ملائمة. غير ان مارت ، عندما همت بالجلوس ردت سلام رجل جالساً خلفها بعدة صفوف . واذ سلّم مرسو بدوره ، خيـــل اليه انه لاحظ ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه . وجلس من غير ان يتنبه الى اليـــد التي كانت مارت تضعها على كتفه لكي تحدثه والتي كان سيتقبلهـــا بفرح لو جاءت قبل ذلك بدقيقة كدليل جديد لهذا السلطان الذي كانت تعترف له به .

— من هو ؟

قالها متوقعاً ان تأتيه « مَن » طبيعية جداً .

— اتعرفين « هذا الرجل » .

قالت مارت : آه . ثم سكتت .

— من هو ؟

— هل تحرص كثيراً على معرفته .

قال مرسو : لا .

والتفت قليلا الى الوراء . كان الرجل ينظر الى رقبة مارت من غير ان

يرف شيء في وجهه . كان جميلا كفاية ،ذا شفتين جميلتين شديدتي الحمرة، ولكن العينين كانتا بلا تعبير وبلا عمق . واحس مرسو بدفقات من الدم تصعد الى صدغيه . وامام نظره الذي اسودّ ، كانت الالوان البراقة لهذا الديكور المثالي الذي كان يعيش فيه منذ ساعات قد غدت فجأة ملطخة بالسخام . اية حاجة كانت به ليسمعها تتكلم . كان متأكداً من ان هذا الرجل كان قد نام مع مارت، وما كان في نفس مرسو كالرعب ، كان تصوّر ما كان بوسع هذا الرجل ان يقوله لنفسه . كان يعرف ذلك جيداً هو الذي كان قد فكر على هذا النحو : « تستطيع دائماً ان تفاخر». وحين راودته الفكرة ان هذا الرجل ، في هذه الدقيقة نفسها ، كان يستعيد حركات معينة لمارت وطريقتها في وضع ذراعها على عينيها لحظة اللذة ، وحين فكر ان هذا الرجل ايضاً كان قد حاول ان يبعد هذه الذراع ليقرأ هياج الآلهة الكئيبة الصاخب في عيني المرأة ، اذ ذاك احس مرسو ان كل شيء فيه ينهار . وبينما كان جرس السينما يعلن استئناف الفيلم ، كانت عيناه المغمضتان تمتلئان بدموع الغضب. كان ينسى مارت التي لم يسبق لها ان كانت الا ذريعة لفرحه، والتي اصبحت الآن الجسد النابض لغضبه. وظل مرسو مغلقاً عينيه فترة طويلة حتى اللحظة التي فتحها فيها على الشاشة . كانت سيارة تدهورت ، وفي صمت عميق للجوقة كلها ، ظلت احدى العجلات وحدها تدور على مهل ، جارفة في دائرتها العنيدة كل العار والخزي المنبعثين من قلب مرسو المستاء . وكانت حاجة اليقين في ذاته تدفعه الى نسيان كرامته . سألها :

– مارت ، هل كان عشيقك ؟

قالت :

– نعم . ولكن الفيلم يستهويني .

في هذا اليوم ، بدأ مرسو يتعلق بمارت، كان قد تعرف عليها لبضعة شهور

خلت . وكان قد ذُهل بجمالها وأناقتها . ففي وجهها العريض قليـــلا ، ولكن المتناسق ، كانت لها عينان مذهبتان بلغتا من اناقة الخضاب بحيث كانت تبـدو اشبه بآلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة. وكانت بلاهة طبيعية تلمع في عينيهـا فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيراً . وحتى الآن ، في كل مرة كان مرسو يعقد فيها مع امرأة ما اولى الحركات الملزمة ويعي الشقاء الذي يفرض على الحب والشهرة ان يتحدا بالطريقة ذاتها ، كان يفكر بالقطيعة قبل ان يكون قد ضمّ هذا الكائن بين ذراعيه . الا ان مارت كانت قد ادركته في لحظة كان فيهـا مرسو يتحرر من كل شيء ومن ذاته . ذاك ان وهم الحرية والاستقلال لا يدركه الا من كان لا يزال يعيش بالأمل . اما بالنسبة لمرسو ، فلم يكن لشيء آنذاك اي حساب . فعندما استرخت مارت بين ذراعيه للمرة الاولى ورأى في الملامح التي جعلها التقارب مشوشة قليلا ، رأى الشفتين الجامدتين حتى الآن كزهرتين مرسومتين تخفقان بالحياة وتمتدان نحوه ، اذ ذاك ، لم ير المستقبل من خلال هـذه المرأة ، وإنما احس بقوة رغبته كلها تتركز فيها وتمتليء بهذا التجلي . وكانت الشفتان اللتان كانت تقدمها له تبدوان له رسالة من عالم بلا اهواء ، مليء باللذة ، يصيب فيه قلبه الرضى . ولقد احس ذلك كأنه المعجزة . وكان قلبه يخفـــق بعاطفة اوشك ان يظنها حباً . وعندما احس باللحم الريان المرن تحت اسنانه ، فانما عضّ فيه نوعاً من الحرية الوحشية عضاً هائجاً بعد ان كان قد داعبـــه طويلا بشفتيه بالذات . وغدت عشيقته في ذلك اليوم نفسه . وبعد فترة ، كان ائتلافهما في الحب تاماً ، ولكنه ، وقد عمقت معرفته لها ، فانه كان قد فقد شيئاً فشيئاً حدس هذه الغرابة التي كان قد قرأها فيها والتي كان ما يزال يحاول ، وهو مائل على فمها ، ان يبتعثها احياناً . وهكذا لم تكن مارت ، التي كانت قد الفت تحفّظ مرسو وبرودته ، لتدرك قط لماذا كان قد طلب منها ذات يوم ان تعطيه شفتيها وهما في حافلة غاصة بالناس . وكانت قـــد قدّمتها له وهي مذعورة . وكان قد قبّلها على هواه بادئاً بمداعبتها بشفتيه ثم عاضاً إياهما على

مهل . وكانت قد قالت له على الأثر : « ماذا دهاك ؟» واقتر وجهه بالبسمة التي كانت تحبها: الابتسامة المقتضبة التي تجيب . فقال « احب ان أحسّني قلقاً» ليدخل مجدداً في صمته . انها لم تكن تفهم كذلك قاموس باتريس . فبعد فعل الحب ، في تلك اللحظة التي يهجع فيها القلب في الجسد المحرر المسترخي، ممتلئاً فقط بالشغف الحنون الذي نكنّه لكلب لطيف ، كان مرسو يقول لها باسماً : « مرحباً يا تجليّ » .

كانت مارت ضاربة على الآلة الكاتبة . ولم تكن تحب مرسو . بيد انها كانت معلقة به بقدر ما كان يثير فضولها ويدغدغ غرورها . فمنذ اليوم الذي تحدث فيه ايمانويل ، وكان مرسو قد قدّمه لها فقال عنه :

— « ان مرسو ، لو تعلمين ، شخصية . انه يخبيء شيئاً في ذاته . ولكنه يغلفه ، من اجل ذلك يُخدع به الانسان » .

منذ ذلك اليوم اخذت تنظر اليه بفضول . فلما كان يجعلها سعيدة في الحب ، فلم تكن لتطلب منه مزيداً ، مستريحة على افضل وجه لهذا العشيق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قط بشيء . وكان يأخذها حين كانت تريد طوعاً ان تأتي . الا انها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء امام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيبه .

غير انها فهمت ذلك المساء ، بعد خروجها من السينما ، ان شيئاً ما يستطيع ان يؤثر فيه . وصمتت طوال الامسية ثم نامت عنده . فلم يلمسها الليل كله . غير انها ، ابتداء من هذه اللحظة ، أفادت من تفوقها . لقد سبق ان قالت له : انها قد كان لها عشاق . وعرفت كيف تجد الادلة الضرورية .

وفي اليوم التالي، وعلى غير عادتها، جاءت الى منزله اثر انتهاء عملها. فوجدته نائماً . فجلست عند اسفل السرير النحاسي من غير ان توقظه . كانت ترتدي قميصاً كانت اكمامه المرفوعة تكشف بياض الساعد العاضل الاسمر . كان

يتنفس بانتظام بصدره وبطنه معاً . وكانت ثنيتان بين حاجبيه تضفيان عليه تعبير قوة واصرار كانت تعرفه جيداً فيه . وكانت خصلات شعره تتهدل على جبينه البالغ السمرة الذي كان وريد ينبض فيه . وكان يبدو ، وهو مستلق على كتفيه العريضتين ، وذراعاه ممتدتان على طول الجسد واحدى ساقيه نصف منثنية ، أشبه بإله متوحد عنيد ملقى ، وهو نائم ، في عالم غريب . وامام شفتيه الريانتين المكتنزتين بالنوم ، اشتهته . فقد فتح في تلك اللحظة عينيه نصف فتحة واغلقها وقال من غير غضب :

– لا احب ان ينظر الي احد وانا نائم .

وقفزت على عنقه وقبلته . فظل جامداً .

قالت :

– اوه . يا حبيبي نزوة اخرى من نزواتك .

– لا تناديني حبيبي ، ارجوك . لقد سبق ان قلت لك ذلك .

وتمددت ملتصقة به ونظرت اليه جانبياً .

– انني اتساءل من تشبه في وضعك هذا .

رفع سرواله وادار لها ظهره . كثيراً ما كانت مارت ، في السينما ، ومع بعض الغرباء وفي المسرح ، معتادة على حركات مرسو وتشنجاته . والحق انه كان يجد في ذلك التأثير الذي كان يمارسه عليها ، غير ان هذه العادة التي كانت تدغدغ غروره غالباً كانت تضايقه اليوم . والتصقت بظهره ، وتلقت على بطنها وعلى صدرها حرارة نومه كلها . وكان المساء يهبط بسرعة كبيرة والغرفة تغرق في الظلمة . وفي داخل البيت كان يتصاعد بكاء اطفال قد ضربوا ونواء واصطفاق باب . وكانت مصابيح الشارع تضيء الشرفة . وكانت حافلات نادرة تمر . وبعد ذلك كانت رائحة الحي المكونة من الانيسون واللحم المشوي تتصاعد الى الغرفة هبات ثقيلة .

واحست مارت بالنعاس يستولي عليها .

قالت :

– يبدو عليك الغضب منذ البارحة . من اجل ذلك اتيت . الا تقول شيئاً ؟

وهزّته . فظل مرسو جامداً . كان يراقب في الظلام، الذي غدا كثيفاً، الحنية اللامعة لحذاء موضوع تحت طاولة الزينة .

قالت مارت :

– اسمع . ان رجل البارحة قد بالغتُ في أمره . لم يكن عشيقي.

قال مرسو :

– لم يكن في الحقيقة ، لم يكن تماماً .

ولم يكن مرسو يقول شيئاً . كان يرى بوضوح الحركات والابتسامات . وقد كزّ على أسنانه. ثم نهض وفتح النافذة ثم عاد وجلس على السرير. وتكوّرت بلصقه وأمرّت يدها بين زرّين من أزرار قميصه ، وداعبت صدره .

واخيراً سألها :

– كم عشيقاً عرفت ؟

– إنك تضجرني .

ثم سكت مرسو .

قالت : – حوالى العشرة.

كان النعاس عند مرسو يستدعي التدخين .

سألها وهو يخرج علبته :

– هل اعرفهم ؟

لم يكن يرى الا بياضاً مكان وجه مارت . وكان يفكر :

« كما في الحب » .

– اجل ، تعرف بعضهم في الحي .

كانت تحك رأسها بكتفه ،وتتخذ صوت فتاة صغيرة كان دائماً يوهي عزيمته

قال لها :

– اسمعي يا صغيرتي . (وأشعل لفافته) إفهميني . ستعدينني بان تقولي لي اسماءهم . اما بالنسبة للآخرين ، اولئك الذين لا اعرفهم ، فستعدينني ايضاً ، ان نحن لقيناهم ، بأن تدلّيني عليهم.

فارتدّت مارت الى الوراء : –آه ! لا .

زمرت سيارة بعنف تحت نوافذ الغرفة . ثم زمرت طويلاً مرة اخرى ثم مرتين . ورنّ جرس الترام في اعماق الليل . وعلى رخام طاولة الزينة كان المنبّه يرسل تكتكات باردة . قال مرسو بجهد :

– انني اطلب منك ذلك لأنني اعرف نفسي ، فـــاذا لم اعرف، فسيتكرر الأمر . كلما لاقيت شخصاً سأسائل نفسي وسأتخيل . هذا هو الأمر . سيشطّ بي الخيال . لست ادري ان كنت تفهمينني .

كانت تفهم تماماً . فذكرت الاسماء . واحد فقط كان مجهولاً بالنسبة لمرسو . اما الأخير، فقد كان شاباً كان يعرفه . وبه كان يفكر ، لأنه كان يعرفه جميـلاً ومحتفى به من النساء . وما كان يثيره في فعل الحب ، للمرة الاولى على الاقل ، كانت هذه الصميمية الفظيعة التي كانت المرأة تتقبلها، وان تتلقى في بطنها بطن مجهول. وكان يتعرف، في هذا النوع من العفوية والبساطة والدوار، على سلطان الحب المثير القذر . وهذه هي الصميمية التي كان يتصوّرها في باديء الأمر بـين مارت وعشيقها . في هذه اللحظة ، جلست على حافة السرير مسندة قدمهـــا

اليسرى على فخذها اليمنى . وخلعت أحد حذائيها ثم الآخر وتركتها يسقطان أحدهما ممدداً على جنبه والآخر واقفاً على كعبه العالي . وأحسّ مرسو بحلقه ينقبض . وكان شيء ما في معدته يتأكله .

قال وهو يبتسم :

ــ اهكذا كنت تفعلين مع رونيه ؟

ورفعت مارت عينيها وقالت :

ــ ما الذي تتصوره ! انه لم يكن عشيقي الا مرة واحدة .

قال مرسو :

ــ آه !

ــ ثم انني لم اخلع حذائي .

ونهض مرسو . كان يراها مقلوبة ، مرتدية ثيابها ، على سرير شبيه بهذا السرير ، مستسلمة بكاملها وبلا تحفظات . وصرخ : « أغلقي فمك ! » ومشى نحو النافذة .

قالت مارت :

ــ آه يا عزيزي !

وكانت ما تزال جالسة على السرير وقدماها عاريتان بجواربهاوعلى الارض.

وكان مرسو يهدأ ، وهو ينظر الى لعب المصابيح على السكك الحديدية . لم يسبق له قط ان كان على مثل هذا القرب من مارت . واذ فهم انه في الوقت نفسه كان ينفتح عليها اكثر قليلاً ، كان الزهو يحرق عينيه . وعاد اليها . وبين السبابة المطوية والابهام أمسك جلد العنق الدافيء تحت الاذن ، وابتسم .

ــ وهذا «زغرو » ، من هو؟ انه الوحيدالذي لا أعرفه.

قالت مارت وهي تضحك :

— انني ما ازال أراه ، هو .

وشدّ مرسو اصابعه على الجلد .

— انه عشيقي الأول . انت تقدر . كنت صبيـــة صغيرة ، وكان يكبرني قليلاً . اما الآن ، فساقاه مقطوعتان. وهو يعيش وحيداً. من اجل ذلك، أذهب احياناً لأراه . انه ذو شخصية . ومثقف . فهو يقرأ دائماً . وفي تلك الايام كان تلميذاً . انه مرح جداً ، انه شخصية بالاختصار . زد على ذلك انه يقـــول لي مثلك . يقول لي : تعالي الى هنا ، يا تجلٍّ .

فكـّر مرسو . وترك مارت التي انقلبت على السرير وهي تغمض عينيها . بعد فترة، جلس الى جانبها وبحث، وهو ينحني على شفتيها المنفرجتين، عن دلائل الوهيته الحيوانية ونسيان الم كان يعتقد انه معيب . ولكنه ترك فمها من غير ان يذهب أبعد من ذلك .

وحين رافق مارت ، حدّثته عن زغرو . قالت :

— لقد حدّثته عنك . قلت له ان حبيبي كان جميلاً جداً وقوياً جداً . واذ ذاك قال لي انه يود لو يتعرف عليك . وقال لي : « ان ارى جسماً جميـــلاً ، فهذا يساعدني على ان اتنفس جيداً . »

قال مرسو :

— انه شخص معقّد آخر.

كانت مارت تريد ان تسرّه، واعتقدت ان الوقت قد حان لتذكر حادثـــة الغيرة الصغيرة التي كانت تفكر بها، والتي كانت تعتقد انه كان هو سببها على نحو ما .

—اوه ! انه اقل تعقيداً من صديقاتك !

قال مرسو وهو صادق التعجب :

– اية صديقات ؟

– انك تعرفهن . الصغيرتان الحمقاوان ، كما تعرف .

الصغيرتان الحمقاوان ، كانتا روز و كلير ؛ وهما طالبتان من تونس كان مرسو قد تعرف عليهما. ومعهما فقط كان يتبادل المراسلة الوحيدة في حياته . وقد ابتسم وأخذ برقبة مارت ومشيا طويلا . كانت مارت تسكن امام ساحـــة العمال اليدويين. وكان الطريق طويلاً، وكان يلمـع بكل نوافذه في القسم الأعلى بينما كان الاسفل ، وكله حوانيت مقفلة اسود حزيناً .

– قل يا حبيبي . الا تحبّها ؟ هاتين الحمقاوين الصغيرتين؟

قال مرسو :

– اوه . لا .

كانا يسيران ، ويد مرسو على رقبة مارت المغطاة بحرارة الشعر .

قالت مارت بلا تمهيد :

– انك تحبني .

وانتعش مرسو فجأة وضحك ضحكاً شديداً .

– هوذا سؤال خطير جداً .

– أجب .

– ولكن في سننا، لا يحب المرء . ان احدنا يروق للآخر، وهذا كل شيء . فيما بعد ، عندما نكون شيوخاً وعاجزين ، نستطيع ان نحب . اما في سننا ، فنعتقد اننا نحب . هذا كل شيء .

وبدت حزينة، ولكنها قبّلته .

قالت :

– الى اللقاء يا حبيبي .

وعاد مرسو أدراجه في الطرقات السوداء . كان يسير بسرعة ، وفيا كان يعي لعبة عضلات فخذه على طول قماش السروال المالس ، أخذ يفكر بزغرو وبساقيه المقطوعتين: كانت به رغبة للتعرف عليه. وقرّران يطلب من مارت ان تقدّمه اليه .

أحس مرسو ، في المرة الاولى التي رأى فيها زغرو ، بالغيظ . بيد ان زغرو كان قد حاول ان يخفف من وطأة الازعاج الكامن في تصوّر لقـــاء عشيقيْ امرأة واحدة ، وبحضورها . لأجل ذلك كان قـــد حاول ان يجعل مرسو شريكاً وهو يعامل مارت « كفتاة طيبة » ويضحك بشدة . وظـــل مرسو مصدوماً . ولقد باح بذلك بعنف لمارت ما ان وجدا بمفردهما .

– انني لا أحب نصف الحصص . ان هذا يضايقني ويمنعني من التفكـــير . وانني أقل حباً ايضاً لنصف الحصص التي تُفاخِر .

أجابت مارت ، ولم تكن قد فهمت :

– اوه ! انت ! لو كنا نستمع اليك.

على ان ضحكة زغرو الفتية التي كانت قد أغاظته في باديء الامر،استرعت فيا بعد انتباهه واهتمامه.كما ان الغيرةالتي أسيء تقنيعها والتي كانت تقود مرسو في حكمه كانت قـد اختفت عندما رأى زغرو . ونصح مارت التي كانت تذكر ، في براءة كلية ، بالوقت الذي كانت تعرّفت فيه على زغرو قائلا :

– لا تضيعي وقتك . لا يمكن ان اكون غيوراً من شخص لا يملك ساقيه بعد . يكفي ان افكر بكما انتما الاثنين حتى أراه كدودة ضخمة عليك . انت تفهمين اذن . ان ذلك يلويني من الضحك . لا تتعبي نفسك ، يا ملاكي .

وفيما بعد ، عاد وحده الى منزل زغرو . وكان هذا الاخير يتكلم كثيراً وبسرعة ويضحك ثم يسكت ، وكان مرسو يحس براحة تامة في الغرفة الكبيرة التي كان زغرو يقيم فيها بين كتبه ونحاسياته المراكشية ، والنار وانعكاساتها على وجه بوذا الرصين الحبري على مكتب عمله. كان يستمع الى زغرو، وما كان يسترعي انتباهه لدى العاجز ، هو انه كان يفكر قبل ان يتكلم . واما ما تبقى من الشهوة المكبوتة والحياة المضطرمة التي كانت تحيي هذا الجذع المضحك ، فقد كان كافياً لكي يمسك بمرسو ويولد فيه ، لو انه استسلم لمزيد من العفوية ، شيئاً كان يمكن ان يعتبره صداقة .

الفصل الرابع

بعد ظهر هذا الأحد ، كان رولان زغرو ، بعد ان كان قد تكلم ومزح كثيراً ، صامتاً قرب النار في مقعده الكبير الدائر ، منبثقاً من اغطيته البيضاء. وكان مرسو ،وهو يستند الى المكتبة ، ينظر الى السماء والى القرية من خلال ستائر النوافذ الحريرية البيضاء . كان قد أتى تحت مطر خفيف ناعم ، وخوفاً من ان يصل أبكر مما ينبغي ،فقد ظل يتيه طوال ساعة في الريف . كان الجو كئيباً ، ومن غير ان يستمع الى الريح ، كان مرسو يرى مع ذلك الاشجار والأوراق وهي تتلوى بصمت في الوادي الصغير . ومرت ، من ناحية الطريق ، عربة حلاّب وسط ضجيج كبير من الحديد والخشب . وفي الحال تقريباً اخذ المطر يتساقط بغزارة ويغرق النوافذ . ومع ترافق هذا الماء الشبيه بالزيت السميك على الزجاج ووقع اجوف وبعيد لحوافر الحصان الذي يبدو الآن اكثر وضوحاً من ضجيج العربة ، ووابل المطر المخنوق المستمر ، وهذا الرجل – القطرميز امام النار وصمت الغرفة ، كل ذلك كان يتخذ وجه الماضي الذي كانت كآبته الصامتة تنفذ الى قلب مرسو كما نفذ الماء منذ قليل الى حذائيه الرطبين والبرد الى ركبتيه المحميتين على نحو رديء بقماش رقيق. منذ لحظات مضت ، كانت المياه المتبخرة التي تهطل ، لا ضباباً ولا مطراً ، قد غسلت وجهه كيد رقيقة ، وكشفت عينيه الغائرتين عميقاً . كان ينظر الآن الى السماء ، وفي اعماقها كانت غيوم سوداء تتزاحم بلا انقطاع سرعان ما تنمحي وسرعان ما تحل محلها سحائب أخرى . وكانت ثنية بنطاله قد اختفت ومعها اختفت الحرارة والثقة التي

يصاحبها رجل طبيعي في تنزهه في عالم مصنوع من أجله . ومن اجـــل ذلك اقترب من النار ومن زغرو، جالساً بمواجهته في ظل المدفأة العالية وبمواجهة السماء دائما . ونظر اليه زغرو وحول عينيه ورمى في النار كرة من الورق كان يحملها في يده اليسرى . وفي هذه الحركة المضحكة كما هي دائما ، تلقّى مرسو الضيق الذي كان يسببه له مرأى هـــذا الجسد نصف الحي . وابتسم زغرو ولكنه لم يقل شيئاً . وفجأة احنى وجهه نحوه . كان اللهب يلمع على خـده الايسر وحده . ولكن شيئاً ما في صوته وفي نظره كان مشحوناً بالحرارة .

قال :

– يبدو عليك انك متعب .

وبدافع من حياء أجاب مرسو بهذه الكلمات فقط :

– اجل ، انني « ضجر » .

وبعد فترة، نهض وسار نحو النافذة، وأضاف وهو ينظر الى الخارج :

– أرغب في ان اتزوج او انتحر او اشترك بمجـلة «أو لوستراسيون » . وبالاختصار حركة يائسة .

وابتسم الآخر :

– انك فقير يا مرسو . وهذا يفسر نصف قرفك . اما النصف الآخر فانك مدين به إلى اقرارك اللامعقول الذي تحمله للفقر .

كان مرسو ما يزال يوليه ظهره وينظر الى الاشجار في مهب الريح . وملس زغرو بيده الغطاء الذي كان يغطي ساقيه .

ـ انت تعلم ان الانسان يحكم على ذاتــه دائما بالنسبة للتوازن الذي يقيمه بين حاجات جسده ومتطلبات فكره . اما انت ، فانك تحاكم نفسك بقذارة، يا مرسو . انك تعيش عيشة سيئة ، عيشة المتوحش .

وادار رأسه نحو باتريس .

– هل تحب ان تسوق سيارة ؟

– نعم .

– هل تحب النساء ؟

– عندما يكنّ جميلات .

– هذا ما كنت أعنيه .

وأستدار زغرو ناحية النار .

بعد لحظة بدأ يقول : « كل هذا ... » .

التفت مرسو وأخذ ينتظر نهاية الجملة ، وهو مستند على الزجاج الذي كان يلتوي قليلاً خلفه . ظلّ زغرو صامتاً . كانت ذبابة باكورية تطنّ على الزجاج . والتفت مرسو وحبسها تحت يده ثم أطلقها . وكان زغرو ينظر اليه ، وقال له متردداً :

– لا أحب ان أتكلم بجد . لأنه لن يكون هناك إلا شيء واحد يمكننا التحدث به : التبرير الذي يضفيه المرء على حياته . اما أنا ، فانني لا أرى كيف أستطيع ان أبرر لنفسي ساقيّ المبتورتين .

– « وأنا كذلك » . قال زغرو من غير ان يتلفت .

وأنفجرت فجأة ضحكة زغرو النضرة :

– شكراً . انك لا تترك لي أي وهم .

وغيرّ لهجته : – ولكنك محق في ان تكون قاسياً . على انّ هناك أمراً أودّ ان أقوله لك .

وصمت برصانة . وأقبل مرسو يجلس تجاهه .

وكرّر زغرو :

–اسمع وانظر اليّ. انهم يساعدونني على قضاء حاجاتي، وبعد ذلك يغسلونني وينشفونني . وأسوأ ما في الأمر انني أستأجر شخصاً ليقوم بهذا العمل . ومع ذلك ، فانني لن أقوم أبداً بحركة لأختصر حياة اؤمن بها كثيراً. انني قد أتقبل ما هو أسوأ أيضاً ، ان أكون أعمى وأخرس وكل ما تريده ، شريطة ان أحس فقط في أحشائي هذه الشعلة الداكنة والمحتـــدمة التي هي أنا وأنا الحيّ . ولن أفكر إلا بان أحمد للحياة أنها أتاحت لي ان احترق بعد .

وأرتمى زغرو إلى الخلف لاهثاً بعض الشيء . كان يُرى الآن أقل من ذي قبل ، فقط انعـــكاساً كابياً كانت أغطيته تخلفه على ذقنه . إذ ذاك قال :

– وانت يا مرسو، ان واجبك الوحيد هو ان تعيش بجسدك . وان تسعد .

قال مرسو :

– لا تجعلني أضحك . تصوّرني بساعاتي الثماني في المكتب . آه ! لو كنت حراً ! .

وكان يحس بالانتعاش وهو يتكلم ، ويعاوده الأمل كما كان في السابق احياناً، وقد ازداد اليوم قوة بدافع من الاحساس بالعون . وكانت ثقة ما تأتيه من ان بوسعه اخيراً ان يكون موضع ثقـــة . وقد هدأ قليلاً وبدأ يسحق لفافة ، وأستأنف بمزيد من الرزانة :

– لسنوات خلت ، كان كل شيء امامي . وكانوا يحدثونني عن حياتي وعن مستقبلي. كنت أقول نعم . بل كنت أفعل ما كان ينبغي عليّ ان أفعله من أجل ذلك .ولكن ذلك كله بدأ آنذاك يكون غريباً علي . ان أتشبث باللاشخصية ، هذا ما كان يشغلني . وان لا اكون سعيداً « ضدياً » . انني أسيء الشرح . ولكنك تفهم يا زغرو .

قال الآخر :

– أجل .

– وما ازال الآن ، لو أتيح لي الوقت .. لن يكون امامي إلا أن أستسلم . وكل ما قد يحصل لي ، علاوة على ذلك، فانما هو كالمطر فوق حصاة ،انه يُنعشها وهذا بذاته جميل جداً . وذات يوم سوف تلتهب بالشمس . لقد بدا لي دائماً ان السعادة انما هي هذا بالضبط .

كان زغرو قد شبك يديه . وفي الصمت الذي تلا ، بـــدأ المطر يتضاعف . وانتفخت الغيوم في ضباب لا متميّز . وأظلمت الغرفـــة بعض الشيء كما لو كانت السماء تصبّ عليها حمولتها من العتمة والصمت. وقال العاجز باهتمام :

– ان للجسد دائماً المثـــال الذي يستحقه . ومثال الحصاة هذه ، ان كان بامكاني ان أقول ذلك ، يحتاج ، لكي يدعمه، جسد نصف ـ إله .

قال مرسو مندهشاً قليلاً :

– هذا صحيح ! ولكن لا تبالغ بشيء. لقد قمت بكثير من الرياضة ، وهذا كل ما الأمر . وأنا قادر على ان أمضي بعيداً في الشهوة .

وفكر زغرو .

قال :

– نعم. وهذا افضل لك. ان تدرك حدود جسدك، هذه هي البسيكولوجية الصحيحة . ثم انه ليس لذلك أهمية . ليس لدينا الوقت لنكون « نحن أنفسنا». ليس لدينا الوقت الا لنكون سعداء . ولكن هل يضجرك ان تحدّد لي فكرتك في اللاشخصية ؟ .

قال مرسو :

– لا .

ثم صمت .

شرب زغرو جرعة من شايه، وترك فنجانه الملىء . كان يشرب قليلاً جداً ،

لأنه لا يريد ان يبول إلا مرة واحدة في اليوم. وبقوة الارادة ، كان يتوصل دائماً تقريباً إلى ان يخفف ثقل الاذلال الذي كان يحمله اليه كل يوم . ليس هنـــاك توفيرات صغيرة . انما هي مأثرة كغيرها . وهذا ما كان قد قاله لمرسو ذات يوم. وتساقطت لأول مرة بضع قطرات من الماء في المدفأة، وأ ّنت النار، وكان المطر يتضاعف على الزجاج . وفي جهة ما أصطفق باب . وفي الطريق المقابل كانت السيارات تتتابع كجرذان لمّاعة . وز ّمرت إحداها طويلا . وعـــبر الوادي الصغير ، كان الرنين الأجوف الحزين يجعل حيز العالم الرطب أكـــثر رحابة، حتى ان ذكراه بالذات غدت بالنسبة لمرسو مر ّكبة من صمت هذه السماء وضيقها .

– انني استميحك عذراً يا مرسو . فقد مضى عليّ وقت طويل من غير ان اتحدث عن بعض الأمور . ولذلك فانا لم أعـد أعرف أو لا أعرف كما ينبغي . عندما أنظر إلى حياتي وإلى لونها الخفي ، أحس فيّ ما يشبه زلزالاً من الدموع، شأني في ذلك شأن هذه السماء . انها مطر وشمس معاً . منتصف نهار ومنتصف ليل . آه ،يازغرو ! أفكر في هذه الشفاه التي قبّلتها ، والولد الفقير الذي كنته ، وفي جنون الحيـــاة والطموح الذي يعصف بي في بعض اللحظات . انني كلّ ذلك في آن واحد . أنا متأكد من ان هناك لحظات لن تعرفني فيها . لا أدري ، فانا متطرفٌ في الشقاء مغالٍ في السعادة .

– أتلعب على عدة مستويات في آن واحد ؟

قال مرسو بحدة :

– نعم .ولكن لا كهاوٍ . كلما فكرت في مسيرة الألم والفرح هذه في ذاتي ، أدرك جيداً وبحماس شديد ان اللعبة التي ألعبها ، هي ، من بين جميع الألعاب، اكثرها رصانة واشدها إثارة .

كان زغرو يبتسم .

– هل لديك إذن شيء تقوم به ؟

قال مرسو بعنف :

– لديّ حياتي لأكسبها .غير ان عملي وهذه الساعات الثماني تحول بيني وبين ذلك .

وصمت وأشعل اللفافة التي كان ما يزال يمسكها بين أصابعه .

ثم قال قبل ان يطفيء عود الثقاب :

– ومع ذلك ، فلو كنت املك ما فيه الكفاية من القوة والصبر ...

ونفخ على عوده وسحق طرفه المفحم على ظهر يده اليسرى .

– انني أدرك جيدا إلى أي درك من الحيـــاة سأصل. لن اجعل من حياتي تجربة . سأكون تجربة حياتي . أجل، انني أدرك جيداً ايّ هوس سيملأني بكل قوته . فيما مضى كنت أصغر مما ينبغي . وكنت أقف في الوسط . اما اليوم ، فقد أدركت ان المرء حين يعمل ويحب ويتألم فانما يعيش بالفعل ، ولكنه يعيش بقدر ما يشفّ ويتقبل قدره كأنعكاس فريد لقوس قزح من الفرح والأهواء هو نفسه بالنسبة للجميـــع .

قال زغرو :

– هذا صحيح . ولكنني كنت أستنتج . ستبقى وحيداً يوماً ما . وهـــذا كل شيء . ولكن اجلس واستمع الي . ان مــــا سبق لك ان ذكرته لي قد أثار انتباهي. هناك شيء بالذات يهمّني، لأنه يؤكد كل ما علمتني اياه تجربتي كانسان، انني احبك كثيراً يا مرسو بسبب جسدك على كل حال . انه هو الذي علـّمك كل هذا . واليوم يبدو لي انني استطيع ان اكلمك بقلب مفتوح .

عادمرسو فجلس بهدوء ودخل وجهه في النور المحمر لنار توشك علىالنهاية . وفجأة ، وفي مربـّع النافذة ، أحسّ خلف الستائر الحريرية بما يشبه الانفتاح في

الليل . شيء ما كان يسترخي خلف الزجاج . ونفـــذ ضوء حليبي إلى الغرفة ، وتعرّف مرسو على شفتي الانسان البوذي الـكامل الساخرتين والمتحفظتين، وعلى النحاسيات المنحوتة . تعرّف على الوجه المألوف الخاطف للياليالمكوكبة والقمرية التي كان يحبها كثيراً . كان ذلك كما لو أن الليل كان قد فقد بطانته من الغيوم فأخذ يلمع في ألقه الهادىء. وعلى الطريق، كانت السيارات تجري بسرعة أقل. وفي أعماق الوادي الصغير ، كان اضطراب مفاجىء يهيء العصافير للنوم. وكانت تُسمع خطى امام البيت . وفي هذا الليل كانت الاصوات ترن أكـــثر اتساعاً واكثر صفاء كحليب على العالم . وبين النار المحمرة واختلاج يقظة الغرفة وبين الحياة الخفية للاشياء المألوفة التي كانت تحيط به ، كانت قصيدة خاطفة تُنسج وتهيء مرسو ليتقبل من قلب آخر بثقة وحب ما سيقوله زغرو . انقلب قليلاً على مقعده ، وامام السماء اخذ يستمع إلى قصة زغرو الغريبة .

بدأ يقول :

– انني متأكد من أننا لا نستطيـــع ان نكون سعداء بلا مال . هذا كل مـــا في الأمر . انني لا احب السهولة ولا الرومنطيقية . أحب ان افهم . لاحظت عند بعضالنخبة انهميعتقدون في نوع منالتفاخر الروحي بأن المال غير ضروري للسعادة . هذه بلادة . وهذا خطأ ، وهو إلى حد مـــا جبن . أترى يا مرسو ، بالنسبة لرجل كريم النسب، فانالسعادة ليست امراً معقداً . يكفيه ان يستعيد قدر الجميع ، ليس بارادة الزهد كما يفعل عدد كبير من الرجال الكبار المزيفين ، ولكن بارادة السعادة . على انك بحاجة إلى وقت لتكون سعيـــداً ، كثير في الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . وفي جميـــع الحالات تقريبـــاً تُتلف حياتنا لنكسب مالاً . بينما يجب ، بالمال ، ان نكسب وقتنا. هذه هي المشكلة التي اثارت اهتمامي في وقت ما . انها دقيقة واضحة .

توقف زغرو وأغمض عينيه . وكان مرسو يتطلع إلى السماء باصرار . بعد

لحظة ، غدت أصوات الطريق والقرية مميزة، واستأنف زغرو حديثه من غير ما استعجال :

ـ .. اوه ، انا أدرك جيداً ان غالبية الرجال الأغنياء لا يملكون أي حس بالسعادة، ولكن السؤال ليس هنا . ان يكون لديك مال ، معنى ذلك هو ان يكون لديك وقت . انني لا أحيد عن هـــذا . ان الوقت يُشترى . كل شيء يشرى . ان تكون او ان تصبح غنياً ، معناه ان تملك الوقت لتصبح سعيداً عندما يكون الانسان جديراً بان يكونه .

ونظر إلى باتريس وقال :

ـ مرسو، عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، كنت قد أدركت ان كل كائن يملك حس السعادة وارادتها ومطلبهـا كان يحق له ان يكون غنياً . وكان مطلب السعادة يبدو لي اشرف ما في قلب الانسان . وكان كل شيء يُبرَّر بها في نظري . ان قلباً نقياً كان كافياً لذلك .

وأخذ زغرو، الذي كان ما يزال ينظر إلى مرسو، يتكلم فجأة بهدوء اكثر، بصوت بارد وقاس، كما لو انه كان يود ان يخرج مرسو من شروده الظاهري :

ـ في الخامسة والعشرين بدأت أجمع ثروتي . لم أتراجع امام الاحتيال . لم يكن لي ان أتراجع امام أي شيء . وبعد سنوات ، كنت قـــد حققت ثروتي النقدية كلها . تصوَّر يا مرسو ، ما يقرب من المليونين. كان العالم يتفتح لي، ومع العالم ، الحياة التي احلم بها في العزلة والاضطرام .

وعاود زغرو ، بعد فترة ، بصوت مخنوق :

ـ تلك هي الحياة التي كنت سأحياها ، لولا الحادث الذي أودى بساقي في

الحال تقريباً . لم أعرف كيف أنتهي . وها انا الآن . إنك تدرك جيداً ، اليس كذلك ، انني لم اكن اريد ان اعيش حياة مستضعفة . ومنذ عشرين عاماً ومالي هنا ، بالقرب مني . لقد عشت بتواضع . لم اكد أنقص ثروتي .

وأمرّ يديه القاسيتين على جفنيه ، وقال بصوت اكثر انخفاضاً :

ـ يجب ألا تكوّن الحياة أبداً بقبلات عاجز . .

في هذه اللحظة ، كان زغرو قد فتح الصندوق الصغير الذي كان يلامس المدفأة ، واشار الى خزنة نحاسية ضخمة مسمّرة مع مفتاحها . وكانت على الخزنة رسالة بيضاء ومسدس كبير اسود . وعلى نظرات مرسو الفضولية بلا تعمّد ، كان زغرو قد ردّ بابتسامة . كان ذلك بسيطاً جداً . ففي الايام التي كان يحس فيها اكثر مما ينبغي المأساة التي كانت قد حرمته من حياته ، كان يضع امامه هذه الرسالة التي لم يكن قد أرّخها ، والتي كانت تشكل قسماً من رغبته في ان يموت ، ثم كان يضع السلاح على الطاولة ويقرّب المسدس ويلصق عليه جبينه ويدير عليه صدغيه ، ويخفف على برودة الحديد حمّى وجنتيه . مكث على هذه الحالة وقتاً طويلاً وهو يترك اصابعه تتيه على طول الزناد ، ويحس فرضة التوقف ، الى ان يصمت العالم من حوله ويلفه النعاس . فينغمر كيانه كله في الاحساس بحديد بارد ومتسخ يمكن للموت ان يخرج منه . وحين يحس انه يكفيه ان يؤرخ رسالته وان يُطلق ، ويتحقق من عبثية سهولة الموت ، كانت مخيلته تنشط بما فيه الكفاية لتمثل له ، بكل فظاعته ، ما يعنيه ، في مفهومه ، نفي الحياة . فكان يحمل في نصف اغفاءته رغبته كلها في ان يحترق بعدُ وسط الكرامة والصمت . وحين كان يستيقظ تماماً ، وفمه ما يزال مليئاً بريق مرّ ، كان يلعق انبوب السلاح ويدخل فيه لسانه ويدمدم اخيراً بسعادة مستحيلة .

ـ لقد أضعت بالطبع حياتي . ولكنني كنت على حق آنذاك . كل شيء من

اجل السعادة ضد العالم الذي يحوطنا بحماقته وعنفه .

وضحك زغرو أخيراً وأضاف :

ـ أترى ، يا مرسو ، ان سقوط حضارتنا وقساوتها تقاس بهذه المسلمة السخيفة التي تقول بان ليس للشعوب السعيدة تاريخ .

كان الوقت متأخراً جداً . كان مرسو مخطئاً في تقديره ذلك . وكان رأسه يعجّ بهيجانٍ محموم ؛ وكان في فمه حرارة اللفافات التي كان قد دخّنها وحمازتها . وكان الضوء من حوله متواطئاً ابداً . ولأول مرة ، منذ ان استمع الى قصته ، التفت ناحية زغرو وقال :

ـ اعتقد أنني أفهم .

وكان العاجز تعباً من مجهوده الطويل يتنفس بخفوت . على أنه قال بجهد بعد فترة صمت :

ـ أودّ ان اتأكد من أنك قد فهمت. لا تجعلني أقول ان المال يصنع السعادة . انما اقصد فقط أنه بالنسبة لطبقة ما من البشر تصبح السعادة ممكنة . (شرط ان يؤمّن الوقت) وان تملك المال هو ان تتحرر من المال .

كان مكوماً على كرسيه وتحت أغطيته . وكان الليل مطبقاً على نفسه فلم يعد مرسو يرى الآن رولان زغرو تقريباً . وتبع ذلك صمت طويل، وكان مرسو يرغب في ان يعيد الاتصالات ويتأكد من حضور هذا الانسان في الظلمة ، فنهض وكأنه يتحسس وقال :

ـ انها لمجازفة جميلة يتعرض لها المرء .

قال الآخر خفية :

ـ اجل . ومن الافضل ان تراهن على هذه الحياة بدلاً من ان تراهن على الأخرى . أما بالنسبة لي ، فانها بالطبع مسألة اخرى .

فكر مرسو : « خرقة ! صفر في العالم » .

- منذ عشرين عاماً لم استطع أن اقوم بتجربة سعادة ما . هـــذه الحياة التي تنهشني ، لم اكن لأتعرف عليها تماماً . وان ما يخيفني في الموت هو هـــذا اليقين الذي يحمله لي من ان حياتي قد استُهلكت دوني . على الهامش . هـــل تفهم ؟

وبلا تمهيد ، انبعثت في الظلمة ضحكة قتية جداً :

- هذا يعني ، يا مرسو ، في حقيقة الأمر ،أنه ما يزال لي ، في حالتي ، بعض الأمل .

وتقدم مرسو بضع خطوات نحو الطاولة .

قال زغرو :

- فكر في هذا كله ، فكر فيه كله .

واكتفى الآخر بان قال :

- هل استطيع ان اضيء النور ؟

- ان أردت .

وبدا أنف رولان وعيناه المستديرتان اكثر شحوباً في النور المشع . كان يتنفس بجهد . وقابل حركة مرسو ، وهو يمد اليه يـــده ، بأن هزّ رأسه وضحك ضحكاً أقوى مما ينبغي :

- لا تبالغ في حملي على محمل الجد . انت تدرك ان الهيئة المأساوية التي يتخذها الناس امام ساقي المبتورتين تغيظني دائماً .

وفكر الآخر : « انه لا يكترث بي » .

ـ لا تنظر بطريقة مأساوية إلا الى السعادة . فكر بهذا جيداً ، يا مرسو . ان لك قلباً نقياً . فكر بهذا .

ثم نظر اليه في عينيه وقال له بعد فترة :

ـ وأنت تملك ايضاً ساقين، فذلك أمر لا يفسد شيئاً .

وابتسم إذ ذاك وحرّك جرساً صغيراً :

ـ انصرف يا صغيري ، انني أريد ان أبوّل .

الفصل الخامس

حين عاد مرسو الى منزله مساء هذا الأحد ، وكانت افكاره كلهــا متجهة نحو زغرو ، قبل ان يدخل غرفته ، سمع نواحــاً كان يأتي من شقة كردونا ، البراميلي . طرق الباب فلم يجبه أحد . كان الانين مستمراً . فدخل من غير مــا تردد . كان البراميلي متكوّراً على سريره،وكان يبكي وهو يغصّ غصات طفل كبيرة . وكانت عند قدميه صورة امرأة عجوز . « لقد ماتت » . قال ذلك لمرسو بجهد كبير . وكان ذلك صحيحاً ، وكان قد مضى عليه وقت طويل .

كان اصمّ ، نصف أخرس ، شريراً وفظاً . وكان حتى ذلك الحين قد عاش مع اخته . ولكنها ، اذ تعبت من شراسته ومن استبداده ، فقد التجأت بالقرب من اولادها . وبقي هو وحده ، حائراً حيرة رجل عليه ان ينظف منزله ويحضر طعامه لأول مرة . وكانت اخته قد روت نزاعاتها لمرسو الذي كانت قد التقت به يوماً في الشارع . وكان هو في الثلاثــين من عمره ، قصيراً ، لا بأس بجماله . وكان قد عاش منذ طفولته مع امه . كانت المخلوق الوحيد الذي أوحى اليــه بخوف موسوس اكثر مما هو مبرّر . كان قد أحبها بروحه الفظة ، أي بشراسة واندفاع ممزوجين . وخير دليل على محبته كانت طريقته في مضايقــة المرأة العجوز بتلفظه بأبذأ الكلام عن الكهنة وعن الكنيسة . ولئن كان قــد عاش

كل هذا الوقت الطويل مع امه ، فلأنه ايضاً لم يكن قد أوحى لأية امرأة بتعلق رصين . إلا ان المغامرات النادرة أو البيت العمومي كانت تسمح له ان يدّعي الرجولة .

وماتت الأم . ومنذ ذلك الحين ، عاش مع اخته . كان مرسو قد اجرهما الغرفة التي كانا يحتلانها . وكان الاثنان وحدهما يشقيان ويرتقيان حياة طويلة قذرة وسوداء . وبصعوبة كانا يتمكنان من ان يتحادثا . ولهذا كانت تمر أيام كاملة من غير ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولكنها كانت قد رحلت . ولقد كان اكثر كبرياء من ان يتشكى ويطلب منها ان تعود . كان يعيش وحده . في الصباح كان يأكل في المطعم وفي المساء يأكل في منزله شرائح من لحم الخنزير ، كان يترك غرفته في اسوأ حال من القذارة . على انه ، في بعض الاحيان ، في أول الأمر ، يوم الاحد ، كان يأخذ رقعة ويحاول ان ينظم الغرف بعض التنظيم . ولكن بعض سذاجات رجالية ، وقدراً على المدفأة ، كانت فيما مضى مزهرة ومزينة ، توحي بالأهمال الذي كان كل شيء يسبح فيه . وان ما كان يسميه ترتيباً كان يرتكز على اخفاء الفوضى وستر ما كان مبعثراً وراء الوسائد او اكثر الاشياء غرابة على الصوان . ومع ذلك ، فقد انتهى به الامر الى السأم ، فلم يكن حتى ليصلح سريره وكان ينام مع كلبه على الاغطية الوسخة النتنة . وكانت اخته قد قالت لمرسو : « انه يتخابث في المقاهي . ولكن المؤجرة قالت لي انها كانت قد شاهدته يبكي وهو يغسل ثيابه » .

وفي الواقع ، وبالرغم من القساوة التي كان عليها ، فان رعباً ما كان يستولي على هذا الرجل في بعض الساعات ويجعله يقدرمدى التخلي عنه . وكانت تقول لمرسو انها بالطبع كانت تعيش معه بداعي الشفقة . ولكنه

كان يمنعها من ان ترى الرجل الذي كانت تحبّـــه . على ان ذلك لم يكن له كبير أهميّة في سنّها . ولقد كان رجلاً متزوجـــاً . وكان يحضر لصديقته زهوراً كان قد قطفها من أسيجة الضواحي وبرتقالاً ومشروبات كان يكسبها من المعرض. صحيح انه لم يكن جميلاً؛ولكن الجمال لا يؤكل سلطة. ثم انه كان طيباً جداً . كانت متعلـّقة به هو الذي كان متعلـّقاً بهـا . أيكون الحب شيئاً آخر ؟

كانت تغسل له ثيابه وتجهد لكي تبقيه نظيفاً . وكان من عادته ان يحمل مناديل مطويّة على شكل مثلـّث ومعقودة حـول العنق ، وكانت تصنع له مناديل بيضاء جداً. وكان ذلك إحدى مسراتها.

ولكن الآخر ، الأخ ، لم يكن يريد ان تستقبل صديقها . فكان عليهـا ان تراه خفية . وكانت قداستقبلته مرة . وإذفاجأهما ،فقدحصلت مشاجرةعنيفة .كان المنديل المثلث قد بقي بعد ذهابها في ركن وسخ من الغرفة ، وكانت ان التجأت عند ابنها . وكان مرسو يفكر بهذا المنديل امام الغرفة القذرة التي كانت تنفتح لعينيه .

وفي تلك الفترة ، كان الناس قد رثوا مـــع ذلك للبراميلي ان يكون متوحداً الى هذا الحد . كان قد حدّث مرسو عن زواج ممكن. وكان المقصود امرأة اكبر منه سنـّاً

ولا شك انه كان يغريها أملُ مداعباتٍ شابـّة وقوية . وكانت ان حصلت عليها قبل الزواج . وبعد فترة ، تراجع عشيقها عن المشروع، معلناً انه كان يجدها أسنّ مما ينبغي. وبقي وحيداً في هـــذا البيت الصغير من الحي. وشيئاً

فشيئاً طوقته القذارة وحاصرته وضربت سريره ، ثم غمرته على نحو راسخ . كان البيت قبيحاً أكثر مما ينبغي. وبالنسبة لرجل فقير لا يجد المسرة في بيته، ثمة بيت أقرب منالاً واكثر غنى ، ومضئاً ، ومرحّباً دائماً : هـــو المقهى . كان روّاد هذا الحي حيويين بنوع خاص . وفيه كانت تهمين حرارة القطيع ، تلك الحرارة التي هي الملاذ الأخير ضد أهوال الوحدة ومتطلباتها القادمة . وقـــد اتخذ الرجل الابكم فيه منزلاً، كان مرسو يجده هناك في جميع الامسيات. وكان بفضلهم يؤخر الى أبعد حد ممكن لحظة الرجوع . وفيهم كان يستعيد مكانـــه بين البشر . وهذا المساء بالذات لم تكن المقاهي ، بلا شك لتكفي . واذ عاد الى منزله، فلا بد انه كان قد اخرج هذه الصورة وايقظ معها اصداء المـــاضي الميت . فوجد من جديد تلك التي كان قد أحبها وعذّبها. وفي الغرفة الكريهة ، وحيداً أمام لا جدوى حياته ، وقف مستجمعاً قواه الاخـــيرة ، ليسترد الماضي الذي كان يشكل سعادته . كان ينبغي افتراض ذلك على الأقـــل ، وافتراض أن التقاء هذا الماضي بحاضره البائس قد فجر شرارة الهبة ، مادام قد أخذ يبكي .

وككل مرة كان فيها مرسو يجد نفسه أمام مظهر قاسٍ من مظاهر الحياة ، فقد كان بلا قوة ، ممتلئاً احتراماً أمام هذا الألم الوحشي . وقـــد جلس على الأغطية القذرة المدعوكة ووضع يـــده على كتف كردونا . كان امامه ، على شرشف الطاولة المشمع ، قنديل كاز ، وزجاجة خمر ، وفتات خبز ، وقطعـــة جبن وصندوق ادوات . وفي السقف تدلت بيوت انسجة العناكب . وكان مرسو ، الذي لم يسبق له ان دخل هذه الغرفة منذ موت امه ، يحـــدد بالقذارة والبؤس المزفت الذي كان يملأها ، الطريق الذي قطعه هـــذا الأنسان .

كانت النافذة التي تطل على الملعب مغلقة ، امـــا الأخرى فلم تكد تكون مفتوحـــة . وكان قنديل الكاز يرسل نوره المستدير الهادىء على

الطاولة ، وعلى قدمي مرسو وكردونا، وعلى كرسي كان يواجهها على مقربة من الحائط . في هذه الأثناء كان كردونا قد أمسك الصورة بين يديه : كان ينظر اليها ويقول ، وهو ما يزال يقبلها ، بصوت العاجز الذي كانه : «مسكينة امي » . ولكنه انما كان يرثي نفسه كذلك . كانت قد دفنت في المقبرة القبيحة التي كان مرسو يعرفها جيداً من الطرف الآخر في المدينة .

وأراد ان يذهب ، فقال وهو يتهجى الكلام لكي يُفهَم :

— يجب — ان — لا — تبقى هكذا .

قال الآخر بمشقة : « ليس لدي عمل بعد » ، وقال بصوت متقطع وهو يمد الصورة : « كنت أحبها » ، وترجم مرسو : « كانت تحبني »

— « لقد ماتت » وفهم مرسو : « انني وحيد » .

— كنت قد صنعت لها هذا البرميل الصغير لعيدها .

على المدفأة ، كان هناك برميل صغير من الخشب المدهون مزين بالدوائر النحاسية وحنفية لماعة . وترك مرسو كتف كردونا الذي استرخى على الوسائد القذرة . ومن تحت السرير انبعث تأوه عميق ورائحة منفرة . وخرج الكلب على مهل ، وهو يجوف كليتيه . ووضع على ركبتي مرسو رأسه ذا الأذنين الطويلتين والعينين المذهبتين. كان مرسو ينظر الى البرميل الصغير . وفي الغرفة القذرة حيث كان هذا الرجل يتنفس بجهد، وحرارة الكلب تحت أصابعه، كان يغمض عينيه على اليأس الذي كان ، لأول مرة منذ زمن بعيد، يتصاعد فيه كبحر . أمام الشقاء والوحدة ، كان قلبه اليوم يقول : « لا » وفي الحزن الكبير الذي كان يملأه ، كان مرسو يحس جيداً ان تمرده كان الشيء الوحيد الحقيقي في نفسه، وان كل ما تبقى كان بؤساً ومجاملة..وكان الشارع الذي كان

البارحة يعيش تحت نوافذه ما يزال يمتلىء بأصواته . وتصاعدت ، في الحدائق تحت السطيحة ، رائحة اعشاب . قدّم مرسو لكردونا لفافة ، فدخّن كلاهما من دون ان يتكلما . ومرت آخر الحافلات ، ومرت معها الذكريات التي مـا تزال حية للرجال والاضواء. ونام كردونا ثم ما لبث ان شخر أنفه المـملىء بالدموع . وكان الكلب المكوّر عند قدمي مرسو يتحرك احياناً وينن تحت احلامـه . وعند كل حركة ، كانت رائحته تصعد نحو مرسو. كان مرسو مستنـداً الى الحائط وكان يحاول ان يضغط في قلبه تمرد الحياة . أخـذ القنديل يدخن ، ويسودّ ، واخيراً انطفأ باعثاً رائحة كاز كريهة .

كان مرسو يهـوّم ، واستيقظ وعيناه محدقتان على زجاجة الخمر . ونهض في جهد كبير . وذهب نحو نافذة داخلية وتجمّد امامها. ومن اعماق الليل ، كانت تصعد نحوه نداءات والوان من الصمت . وعنـد حدود العالم الذي كان يغفو هنا ، تصاعد طويلاً نداء مركبٍ يدعو الناس الى الرحيـل والى بداءات جديدة .

وفي اليوم التالي ، كان مرسو يقتل زغرو . ويعود الى منزله وينـام عصر يوم بأكمله ، ويستيقظ محموماً . وعنـد المساء استدعى طبيب الحي ، وهو ما يزال مستلقياً ، فأبلغه بأنه مصاب بنزلة وافـدة . وأتى موظف من مكتبه حين علم بأخباره حاملاً معه طلبه للاجازة . وبعد ايام ، كان كل شيء قد دُبّر . محضر الموت والتحقيق . وكان كل شيء يبرر فعل زغرو . وجاءت مارت لترى مرسو ، وقالت وهي تتنهد : « هناك ايام يريد فيهـا الانسان ان يكون محله . ولكن هناك مرات ، يحتاج فيها الانسان الى مزيد من الشجاعـة ليعيش اكثر ممـا يحتاج لينتحر » . وبعد اسبوع كان مرسو يبحر الى

مرسيليا . كان ذاهبـــاً ، بالنسبة للجميع ، ليرتاح في فرنسا . ومن ليون ، تلقّت مارت رسالة قطيعة عانت منهـــا كبرياؤها . وفي الوقت نفسه، كان يعلن لها ان وظيفة استثنائية كانت قد عُرضت عليـــه في اوروبا الوسطى . وكتبت له مارت رسالة عن ألمها وضعتها في شباك البريد . ولم تصل هـــذه الرسالة قط لمرسو ، الذي أصيب ، في اليوم التالي لوصوله الى ليون ، بنوبـة حمىّ عنيفة وقفز الى قطار متوجـه الى براغ . ومع ذلك ، فقد كانت مارت تخبره انهم ، بعد عدة ايام من عرض الجثة ، كانوا قـــد دفنوا زغرو وأنهم كانوا بحاجة الى كثير من الوسائد لكي يسندوا جذعه في النعش .

القسم الثاني

الموت الواعي

الفصل الأول

قال الرجل بالألمانية :

ـ أريد غرفة .

كان البواب الجالس امام لوحة محملة بالمفاتيح مفصولاً عن البهو بطاولة عريضة . وقد تفحص الشخص الذي دخـــل الساعة ، ومعطفه المشمع الرمادي ملقى على كتفيه ويتحدث وهو يدير رأسه .

ـ بالطبع ، أيها السيد ، لليلة؟

ـ لا . لا أدري .

ـ عندنا غرف بثمانية عشر كوروناً وبخمسة وعشرين وبثلاثين .

كان مرسو ينظر إلى شارع براغ الصغير الذي كان يُرى من خلال باب الفندق الزجاجي ، كانت يداه في جيبه مكشوف الرأس تحت شعره المشعث ، وعلى بعد خطوات ، كان يسمع صرير الحافلات التي كانت تهبط جادة ويتسلاس .

ـ أية غرفة ترغب يا سيدي ؟

قال مرسو ، ونظراته ما تزال مسمّرة على الباب الزجاجي :

ـ لا فرق .

فأخذ البواب مفتاحاً من على اللوحة وقدمّها لمرسو .

قال : ـ الغرفة رقم ١٢ .

وبدا على مرسو انه يستيقظ .

ـ كم أجرتها ، هذه الغرفة ؟

– ثلاثون كوروناً .

– انها أغلى مما أستطيع . أريد غرفة بثمانية عشر كوروناً .

وأخذ الرجل مفتاحاً جديداً، من دون ان ينبس بكلمة، وأشار إلى النجمة النحاسية التي كان المفتاح يتدلى منها : الغرفة رقم ٣٤ .

حين جلس مرسو في غرفته ، خلع سترته ، وشد قليلاً ربطة عنقه ، من دون ان يفكها، وشمّر أكام قميصه بطريقة آلية . واقترب من المرآة فوق المغسلة ، لملاقاة وجه ذي ملامح مشدودة ، مسمرّ في الاماكن التي لم تكن تسوّدها ذقن نمت منذ بضعة أيام. وكان شعره المشعث من سباق الترام ، يتهدل متناثراً على جبينه حتى ثنيتين عميقتين بين الحاجبين كانتا تضفيان على نظره نوعاً من التعبير الجاد الحنون استلفت نظره بالذات . وعندها فقط فكر في أن ينظر حوله إلى الغرفة الحقيرة التي كانت تشكل ثروته الوحيدة والتي لم يكن يرى فيا وراءها أي شيء على الأطلاق . وعلى سجادة قذرة ذات رسوم ازهار ضخمة صفراء على أرضية رمادية ، كانت جغرافية كاملة من القذارة ترسم عوالم لزجة من البؤس . وخلف المشماع الضخم ، كانت زوايا دهنية وموحلة . وكان المعكاس مكسوراً فكانت ترى منه أدوات التماسّ النحاسية . وفوق سرير ذي صفائح نحاسية ، كان خيط قد ورنشه الدهن وجفت عليه بقايا ذباب قديمة ، تتدلى منه لمبة من دون كمّة كانت تلزق بالأصابع . ولاحظ مرسو الشراشف التي كانت نظيفة . وأخرج أدوات زينته من الحقيبة ونظمها واحدة فواحدة على المغسلة . ثم تأهب ليغسل يديه ، ولكنه أقفل الحنفية التي لم يكد يفتحها، ثم ذهب ليفتح نافذة بلا ستائر . كانت تطل على فناء خلفي فيه حوض غسيل وعلى جدر مثقوبة بنوافذ صغيرة على إحداها كان غسيل يجف . وتمدد مرسو وسرعان ما غفا . واستيقظ مبتلاً بالعرق، مختل الهندام ، ودار لحظة في غرفته ، ثم أشعل سيكارة وجلس ، فارغ الرأس ، ونظر إلى ثنيات سرواله المدعوك . وفي فمه كانت تمتزج مرارة النوم والسيكارة . ونظر إلى غرفته مرة أخرى وهو يحك جنبيه تحت

قميصه ، وأحس بعذوبة مريعة تتصاعد إلى فمه امام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة. وكان يكفيه ان يحس نفسه في هذه الغرفة بعيداً إلى هذا القدر عن كل شيء وحق عن حمّاه ، ويتحقق بهذا الوضوح ما في اعماق أكثر الحيوات تنظيماً من عبث وبؤس ، حين ينتصب امامه الوجه المخجل الخفي لنوع من الحرية يُولد من الملتبس والمشبوه . وحوله كانت ساعات واهنة وليّنة ، وكان الزمن كله يبقبق كأنه الوحل .

دُقّ الباب بعنف ، فاضطرب مرسو ، وتذكر أنه سبق له ان أوقظ بضربات شبيهة بهذه . وفتح فوجد نفسه أمام عجوز مشقر الوبر ، مسحوق تحت حقيبتي مرسو اللتين بدتا عليه ضخمتين . كان يختنق من الغضب ، وكانت أسنانه المفرقة تخرج من خلالها سيلا من الكلام المليء بالشتائم والاحتجاجات. وإذ ذاك تذكر مرسو القبضة المكسورة التي كانت تجعل كبرى الحقيبتين متعبة إلى هذا الحد بحملها . واراد ان يعتذر ، ولكنه لم يدر كيف يقول انه لم يكن يعلم ان الحمال كان عجوزاً إلى هذه الدرجة . ولكن العجوز القصير قاطعه :

ــ أربعة عشر كوروناً .

وتعجب مرسو : من أجل يوم في المستودع ؟

وفهم عندئذ من الشروح الطويلة التي قدّمت له ان العجوز كان قد أستقل سيارة أجرة ، ولكنه لم يجرؤ على القول انه كان بامكانه ان يستأجر سيارة بنفسه في هذه الحالة ، ودفع بدافع من الملل. وحين أغلق الباب أحس مرسو بدموع لا يمكن تفسيرها تملأ صدره . ودقت ساعة قريبة جداً الرابعة . كان قد نام ساعتين . كان يدرك ذلك ، ولم يكن مفصولاً عن الشارع الا بالبيت الذي كان يواجهه ، وكان يحس بزخم الحياة الصامتة السرية التي تسيل منه. من الأفضل ان يخرج . وغسل مرسو يديه طويلا جداً ، ولكي يبرد أظافره ، عاد فجلس على حافة السرير وحرك بانتظام المبرد ، وصفرت اثنتان أو ثلاث صفارات في

الساحة بعنف شديد جعــل مرسو يعود إلى النافذة. وإذ ذاك رأى تحت البيت ممرا مقبباً يؤدي إلى الشارع . كان ذلك يتم كما لو ان جميع أصوات الشارع ، الحياة المجهولة كلها للناحية الأخرى من البيوت ، ضجيج الرجال الذين يملكون عنواناً وعائلة واختلافات مع عم، واطعمة مفضلة على المـائدة ومرضاً مزمناً ، بالاضافة إلى ازدحام الناس كالنمل والذين كانت لكل واحد منهم شخصيته ـ كان ذلك كله كضربات كبيرة مفصولة إلى الأبد عن قلب الحشد الهائــل يتسلل من الممر ويتصاعد على طول الملعب كله لينفجر كفقاقيع في غرفة مرسو. وكان يكفيه ان يحس نفسه نفيذا إلى هذا الحد ، منتبهاً إلى هذا الحد لكل اشارة من العالم حتى يدرك الشق العميق الذي كان يفتحه على الحياة . وأشعل سيكارة أخرى ولبس بعصبية . وأحس وهو يزرر أزرار سترته بالدخان يخز جفونه . ورجــع إلى المغسلة يمسح عينيه واراد ان يسرح شعره . ولكن مشطه كان قد اختفى . وكان النوم قد شعّث شعره ، وعبثاً حاول ان يعيد تصفيفه . وهبط كما هو ، شعره متهدل على وجهه، ومنكوش من الخلف. كان يحس بمزيــد من الاذلال؛ وإذ أصبح في الشارع ، قام بدورة حول الفندق لينفذ امام الممر الصغير الذي كان قد لاحظه. كان الممر ينفتح على جادة المختارية القديمة . وفي المساء الثقيل بعض الشيء الذي كان يهبط على براغ ، كانت قمم قبب المختارية الغوطية وقمم كنيسة تينسكي القديمة تتقاطع سوداء. وكان جمــع غفير يجري تحت الشوارع الصغيرة المقنطرة . وكان مرسو ، امام كل امرأة، يترصــد النظر الذي كان يسمح له بان يعتقد نفسه قادراً بعدُ على ان يلعب لعبة الحيـــاة الرهيفة الحنون . ولكن الاشخاص الاصحاء يملكون طريقة فنية طبيعية تتجنب النظرات المحمومة . كان غير حليق الذقن ، مشعثاً، في عينه تعبير حيوان قلق ، سرواله مدعوك كقبة قميصه . كان قد فقد هذا التفه العجيب الذي تضفيه بذلة مفصلة تفصيلاً جيداً أو مقود سيارة. كان الضوء يصبح قاسياً والنهـــار يتباطأ على ذهب القبب الباروكية التي كانت ترى في قلب الساحة . توجه نحو احداهـــا ، ودخل

الكنيسة ، واذ أسرته الرائحة القديمة ، فقد جلس على مقعد . كانت القبـــة معتمة تعتيماً تاماً،ولكن ذهب تيجان العواميد كان يصب" ماء مذهّباً سرياً كان يسيل في اضلاع العواميد حتى وجه الملائكة المنفتـــح والقديسين المقهقهين . وكانت ثمة عذوبة ، اجل ، لقد كانت هناك عذوبة ولكنها كانت مرة الى حد جعلت مرسو يرتد الى العتبة ، وحين انتصب واقفاً على الدرجات ، تنفس هواء الليل الذي غدا الآن اكثر رطوبة والذي كان ينغمر فيه. وبعد لحظة اخرى، رأى أول نجمة تتقد ، نقية معراة بين قمم قبب كنيسة نينسكي .

وأخذ يبحث عن مطعم رخيص . وغرق في شوارع أشد ظلاماً وأقـــل مارّة . وبالرغم من ان المطر لم يسقط في النهار،فإن الأرض كانت مبتلة،وكان على مرسو ان يتجنب البرك السوداء بين البلاطات النادرة . ثم أخـذ مطر خفيف ناعم يهطل. ولم تكن الشوارع المأهولة بعيدة من غير شك،لأن أصوات منادي الصحف كانت تُسمع الى هنا وهم ينادون « الناروردنا بوليتيكا . وكان هو ، اثناء ذلك ، يطوف بالمكان . ثم توقف فجأة . كانت رائحة غريبة تتصاعد من اعمــاق الليل . كانت واخزة ، حامزة ، وكانت توقـظ فيه جميع امكانيات القلق . كان يحسها على لسانه ، في اعماق انفه وعلى عينيه . كانت بعيدة ، ، ثم مالت على زاوية الشارع بين السماء المسودة والبلاطات الدهنيـــة والدبقة ، كأنه سحر رديء لليالي براغ . تقدم نحوها ، وكانت تغدو ، كلما تقدم ، اكـــثر حقيقة . كانت تجتاحه بأكمـــله وكانت تخز عينيه بالدموع وتخلفه لا حول له ولا قوة. وعلى زاوية شارع،أدرك السبب،كانت امرأة عجوز تبيع خياراً مكبوساً بالخل وكانت رائحتـــه هي التي امسكت بمرسو . وتوقف مـــار" ، واشترى خيارة لفتها له العجوز بورقة. خطا بضع خطوات،ثم فتح لفتّه أمام مرسو ، وقضم بملء أسنانه الخيارة التي كان لحمها الممزق السائل تفوح منه رائحة أشد.

كان مرسو منزعجاً،فاستند على ركيزة وتنفس لحظة طويلة كل ما كان يقدمه

له العالم من غريب ومتوحّد في هذه الدقيقة. ثم رحل ودخل، من غير ان يفكر، الى مطعم كان ينبعث منه لحن أكورديون. ونزل بضع درجات، وتوقف في منتصف السلم. ووجد نفسه في قبو صغير معتم كفاية ومليء بالاضواء الحمراء. لا شك ان هيئته كانت غريبة لأن الاكورديون بدأ ينغم بخفوت اكثر، ولأن الأحاديث توقفت والزبائن التفتوا نحوه. في الزاوية كانت فتيات يأكلن وشفاههن مكتنزة. وكان زبائن آخرون يشربون جعة التشيكوسلوفاكيا السمراء العذبة. وكثيرون كانوا يدخنون من غير ان يأكلوا. واحتل مرسو طاولة طويلة بما فيه الكفاية كان يشغلها رجل واحد. كان الرجل طويلاً ونحيلاً، اصفر الزغب، وكان مكوّماً على كرسيه، ويداه في جيبه، يزم شفتيه المشققتين حول طرف عود ثقاب كان متضخماً من الريق، وكان يمصه بصوت كريه او كان يمرره من زاوية الى اخرى من فمه. حين جلس مرسو، لم يكن الرجل يتحرك، فاستند الى الحائط، ووجه عود الثقاب ناحية القادم وثنى عينيه خفية. في هذه اللحظة رأى مرسو نجمة حمراء على عروته.

واكل مرسو قليلاً وبسرعة. لم يكن جائعاً. وكان الاكورديون ينغم الآن بشكل اوضح. وكان الرجل الذي يحركه يحدّق بالقادم الجديد. وفي محاولتين متكررتين، حمّل هذا الأخير عينيه بالتحدي وحاول ان يثبت نظره. ولكن حمّاه كانت قد أوهنته. كان الرجل مايزال ينظر اليه. وفجأة، انفجرت احدى الفتيات بالضحك، فمص الرجل ذو النجمة الحمراء كبريتته بقوة وكانت تنفتح عليها فقاعة صغيرة من اللعاب. اما الموسيقى، فقد اوقفت الرقص الصاخب الذي كان يعزف نغمته، من دون ان يتوقف عن النظر الى مرسو ليباشر لحناً بطيئاً مصفراً بكل غبار القرون. في هذه اللحظة فتح الباب امام زبون جديد. لم يره مرسو، على انه، من الفتحة، تسللت بخفة رائحة الخل والخيار. فملأت دفعة واحدة القبو الصغير المعتم، مختلطة بلحن الاكورديون السحري، مضخمة فقاعة اللعاب على كبريتة الرجل، محيلة الاحاديث فجأة

اكثرَ تعبيراً ، كما لو انه من حدود الليل الذي كان يغفـــو على براغ كان كل معنى العالم القديم الخبيث والمؤلم يأتي ليلوذ بحرارة هذه القاعـــة وهؤلاء الرجال . وأحس مرسو الذي كان يأكل مربى مسكراً اكثر مما ينبغي ، والذي كان مقذوفاً فجأة حتى نهاية ذاته ، أحس ان الصدع الذي كان يحمله في نفسه يتقضقض ويفتحه على نحو اكثر رحابة على القلق والحمّى.ونهض فجأة، ونادى النادل ، ولم يفهم شيئاً من شروحه ، ودفع بسخاء وهو يلاحظ من جديـد نظرة الموسيقي المنفتحة والمحدقة ابداً فيه . وبلغ الباب.وتجاوز الرجل فلاحظ انه كان ما يزال يتأمل الطاولة التي كان قد غادرها . وادرك آنذاك انه قـــد كان اعمى ، وارتقى الدرجات ، واذ فتـح الباب ، ووجد نفسه كله ملقىً في الرائحة الحامزة ابداً ، تقدم في الطرقات القصيرة نحو اعماق الليل .

كانت النجوم تتألق فوق المنازل . لا بد أنه كان بالقرب من النهر الذي كان يسمع خريره الاصم القوي . وامام شبكة في حائط ، سميك مملوء بحروف عبرية ، أدرك انه كان في الحي اليهودي. فوق الحائـط كانت اغصان صفصاف ذات رائحة مسكرة تتساقط من جديد. ومن خلال الشبكة، كان المرء يلاحظ أحجاراً ضخمة سمراءمدفونة بين الاعشاب . كانت تلك مقـــبرة براغ اليهودية القديمة، وعلى بعد خطوات من هنا، وجد مرسو نفسه من جديد ، راكضاً ، من الساحة القديمة لدار البلدية. وامام فندقه،اضطرالى انيستند الى حائط، وتقيـأ بجهد . وبكل الوضوح الذي يمنحه الضعف الأقصى وجد غرفته بلا ادنىخطأ، فاستلقى، وسرعان ما نام.

وفي اليوم التالي استيقظ على صراخ بائعي الصحف . كان الجو مـــا يزال ثقيلاً ، ولكن كان بالامكان التنبؤبالشمس وراء الغيوم . وكان مرسو ، بالرغم من ضعفه الخفيف،يحس بالتحسن. ولكنه كان يفكر بطول اليوم الذي يتقدم. ان يعيش هكذا بحضور ذاته ، معناه ان يتخذ الوقت امتداده الأقصى،فتبدو

له كل ساعة من ساعات النهار وكأنها تضم عالماً . قبل كل شيء ، عليه ان يتجنب ازمات كالتي حدثت البارحة . ومن الافضل ان يزور المدينة بانتظام. جلس على طاولته ، بمنامته ، ووضع لنفسه برنامج عمل منظم يشغل كل يوم من أيامه لمدة اسبوع . ولم ينس شيئاً . الاديرة والكنائس الباروكية ، المتاحف والاحياء القديمة .. ثم أصلح هندامه ، ولاحظ اذ ذاك انه كان قد نسي ان يشتري مشطاً فنزل ، كالبارحة ، مشعثاً وصامتاً امام البواب الذي لاحظ في وضح النهار شعره المقنفذ ، وهيئته المذهولة وسترتــه التي كان ينقصها الزر الثاني . وعند خروجه من الفندق ، تأثر بلحن أكورديون طفولي وحنون . كان اعمى البارحة ، في زاوية الجادة القديمة ، مقرفصاً على كعبيه ، يحرك آلته بالتعبير نفسه ، الفارغ المبتسم كأنما هو محرَّر ، من ذاته ، ومنضوٍ كله في حركة حياة كانت تتجاوزه . وعند زاوية الشارع ، التفت مرسو ووجد رائحة الخيار ، ومعها ، قلقه .

كان هذا اليوم ما كان ينبغي ان تكونه الأيام التي تلتــه . كان مرسو يستيقظ متأخراً ، فيزور أديرة وكنائس ، وكان يبحث عن مـلاذ في رائحتها القبوية والبخورية ، لكنه وحين يعود الى النهار ، يلتقي خوفه الخفي مـع بائعي الخيار الذين كانوا منتشرين في جميع زوايا الشارع . ومن خلال هـذه الرائحة كان يرى المتاحف ويفهم غزارة وسر العبقرية الباروكية التي كانت تملأ براغ بذهبها وعظمتها : وكانت الاشعة المذهبة التي كانت تلمع برفق على المذابح في جوف الظل تبدو له مأخوذة من السماء النحاسية المكونة من ضباب وشمس والمرتفـعة غالباً فوق براغ . وكانت خردوات الحلزونيات والدويرات ، والديكور المعقد الذي يمكن ان نقول إنه من الورق المذهب ، كان مثيراً في شبهه بمذاود الطفل التي تقام في الميلاد ، وكان مرسو يحسّ في ذلك الضخامة والغرابة والتناسق الباروكي ، كأنه رومنسية ، محمومة ، طفولية وطنانة يدافع بهـا

الانسان عن نفسه ضد شياطينه الخاصة . والاله الذي كان يُعبد هنا ، هـو الاله الذي يخشى ويبجّل ، لا الاله الذي يضحك مع الانسان امام الاعيب البحر والشمس الودّية . وحين خرج مرسو من رائحة الغبار والعدم التي كانت تخيم تحت القبب المعتمة ، كان يجد نفسه بلا وطن . وفي كل مساء ، كان يذهب الى اديرة النساك التشيكيين ، في غرب المدينة ، وفي حديقة الدير كانت الساعات تتطاير مع الحمام . وكانت الأجراس تقرع بعذوبة على العشب . ولكن كانت حمّاه هي التي تتحدث ايضاً اليه . على ان الوقت كان يمر كذلك . ولكن تلك كانت الساعة التي كانت فيهـا الكنائس والآثار مغلقة والمطاعم غير مفتوحـة بعد . وهنا كان الخطر . كان مرسو يتنزه على ضفاف فلتافا المليئة بالحدائـق والجوقات الموسيقية في النهار المنتهي . وكانت مراكب صغيرة تصعد من جديد النهر من سد الى آخر . وكان مرسو يصعـد معها ، وكان يترك الضجيج المصم وغليـان هويس القناة ، ويستعيد شيئاً فشيئاً سلام المساء وسكونه ، ثم يمشي من جديد لملاقاه هدير كان يتضخم حتى الضجيج . وحـين وصل الى السد الجديد ، ظل ينظر الى القوارب الصغيرة الملونة وهي تحاول عبثاً ان تجتـاز السد من غير ان تنقلب ، حتى تمكن احدها من ان يجتاز النقطة الخطرة ، فعـلا الصياح على صوت المياه . وكان هذا الماء المندفع والمشحون بالأصوات والانغام وروائح الحدائق ، المليء بالأضواء النحاسية لسماء المغيب وبالظلال الملتويـة والمتنافرة لتماثيل جسر شارل ، كان هذا الماء يحمل لمرسو الوعي المؤلم الحاد لوحدة بلا حماسة لم يكن للحب بعد اي مكان فيها . وحين توقف امام عطر المياه والاوراق الذي كان يتصاعد اليه ، منقبض الحلق ، كان يتخيل دموعـاً لم تكن لتأتي . وكان يكفيه مجرد صديق او ذراعان مفتوحتـان . ولكن الدموع كانت تتوقف عند حدود عالم بلا حنو ، كان غارقاً فيه . وفي مرات أخرى حين كان يجتاز جسر شارل ، في هذه الساعـة من المساء ايضاً ، كان

يتنزه في حي "هردستين ، فوق النهر ، المقفر الصامت على بضع خطوات من أكثر أحياء المدينة ازدحاماً . كان يتيه بين هذه القصور الفخمة ، ويحاذي المتنزهات الواسعة المشجرة ، المبلطة على طول الحواجز المنحوتة حول الكاتدرائية . وبين جدران القصور العالية كانت اقدامه تصدي في السكون . وكان صوت أصم يتصاعد من المدينة اليه . ولم يكن هناك بائع خيار في هـذا الحي ، ولكنه أحس بشيء مقبض في هذا الصمت وهذه العظمة ، حتى ان مرسو كان ينتهي دائماً بأن يعود فيهبط نحو الرائحة او النغم اللذين كانا يكونان من الآن فصاعداً كل وطنه . كان يأكل في المطعم الذي كان قد اكتشفه والذي ظل " ، بالنسبة له على الأقل ، مألوفاً . وكان مكانه أمام الرجل ذي النجمة الحمراء والذي كان يأتي فقط مساء . فشرب كأس جعة . وعلك كبريتته . وعند العشاء ، ايضاً ، كان الأعمى يعزف ، وكان مرسو يأكل بسرعة ويدفع ويعود الى فندقه نحـو نوم طفل محموم لم يفته ليلة واحدة .

كل يوم كان مرسو يفكر في الذهاب ، وكل يوم كان يزداد غوصاً في التخلي ، فتضعف ارادته للسعادة في ان تقوده . لقد مضى عليه أربعـة أيام في براغ لم يكن قد اشترى فيها بعد المشط الذي كان يحس غيابه كل صباح . على انـه كان لديه الشعور المبهم بنقص ما ، وهـذا ما كان ينتظره بغموض . وذات مساء ، كان يتوجه نحـو مطعمه في الطريق الصغيرة حيث التقى بالرائحة في المساء الأول . والحق انه كان قد بدأ يحسها قادمة عندما أوقفه شيء مـا ، قبل المطعم بقليل ، على الرصيف المقابل وجعله يقترب . كان ثمة رجل ممـدد على الرصيف مشتبك الذراعين ورأسه مائل على خده الايسر . وكان ثلاثـة اشخاص او أربعة يستندون الى حائط كما لو انهم ينتظرون شيئاً مـا ، على هدوئهم الكبير . وكان أحـدهم يدخن . وكان الآخرون يتحدثون بصوت خافت . ولكن رجلاً مشمّر الاكمام ، وسترته على ذارعه ، ولبديته مرتـدّة الى الخلف ، يوّميء حول الجسد رقصة وحشية ، نوعـاً من رقصة هندية

موقـّتة ومرهقة . وفوق ، كان نور مصباح بعيد خافت جداً يتآلف مع الضوء الأصم الذي كان ينبعث من المقهى على بعد خطوات . هذا الرجل الراقص بلا توقف ، وهـــذا الجسد ذو الذراعين المتشابكتين ، وهؤلاء المتفرجون الهادئون الى هـــذا الحد ، وهذا التناقض المضحك ، وهذا الصمت الجديد ، كان في ذلك كله لحظة توازن مضى مكوّنة اخيراً من التأمل والبراءة بــين الاعيب الظل والضوء المطبقة قليلاً ، هذه اللحظة التي كان يبدو لمرسو ان كل شيء فيها يهوي في الجنون . وازداد قرباً . كان رأس القتيل يسبح في الدم . وعلى الجرح ، كان الرأس قد انحنى ، وكان الآن يستكين في هذه الزاويــة البعيدة من براغ ، بين الاشعة النادرة على البلاط الدهني ، والانزلاقات الطويــلة المبتلة للسيارات التي كانت تمر على بعد خطوات من هنا ، والعودة المتباعدة النائية للحافلات الصاخبة المتباعدة. في هذه الزاوية ، كان الموت يتكشف عذباً وملحاً . وكان نداؤه بالذات ونفحه الرطب هو مـا كان يحسه مرسو في اللحظة التي مضى فيها بخطى كبيرة من غير ان يلوي. وفجأة، قدمت الرائحة لتهزّه ، وكان قد نسيها ، فدخل الى المطعم وجلس على طاولته . كان الرجل هنـــا ، ولكن من دون كبريتته . وخيل لمرسو انـه كان يرى شيئاً من الشرود في نظراته . وطرد الفكرة السخيفة ، التي كانت تمثّل له . ولكن كل شيء كان يدور في رأسه . وقبل ان يطلب أي شيء ، هرب فجأة ، وركض حتى فندقه وارتمى على سريره. كانت لذعة حارّة تحرق صدغه . كان فارغ القلب منقبض البطن وكان تمرده ينفجر . وكانت صور من حياتــه تضخم عينيه. شيء ما في داخله كان يزعق وراء حركات نساء وأذرع تتفتح وشفاه دافئة . ومن اعماق ليالي براغ المؤلمة ، وسط روائح الخل والانغام الطفولية ، كان يتصاعد اليه الوجه القلق للعالم الباروكي القديم الذي كان قد صاحب حمّـاه . وجلس على سريره ، وهو يتنفس بجهد ، وبعيون اعمى وحركات

آ لة . وكان درج المنضدة مفتوحاً ومكسواً بصحيفة انكليزية قرأ فيها مقالاً كاملاً . ثم عاد فارتمى على سريره . كان رأس الرجل منحنياً على الجرح، وفي هذا الجرح كان بالامكان دسّ أصابع . نظر الى يديه والى أصابعه ، فانبعثت من قلبه رغبات طفل. وكانت حمامة حادة وخفية تتفاقم فيه مع الدموع، فاذا هو حنين الى مدن مليئة بالشمس والنساء مع امسيات خضراء تضمد الجروح . وانفجرت الدموع . وفي نفسه، كانت بحيرة كبيرة من الوحدة والصمت تتسع، وعليها كان يركض لحن خلاصه الحزين .

الفَصْل الثاني

في القطار الذي كان يقوده نحو الشمال ، كان مرسو يتـــأمل يديه . كانت السماء تنبيء بعاصفة كان جري الترام يثير فيها موجـــة من الغيوم المنخفضة الثقيلة . وكان مرسو وحده في هذه الحافلة المفرطة السخونة . كان قـد ذهب مسرعاً في الليل ، وإذ أصبح الآن وحيداً أمام الصبيحة القاتمة ، كان يترك لكل عذوبة هذا المنظر البوهيمي ان تتسلل إلى نفسه ، حيث كان انتظار المطر بين الصفصافات الحريرية العالية ومداخن المعامل البعيدة يخلف ما يشبه الرغبـة في الدموع . وكان ينظر إلى اللافتة البيضاء بعباراتها الثلاث: « من الخطر الإنحناء إلى الخارج » . ومن هنا ، كانت يـــداه ، أشبه بحيوانين وحشيين نابضين على ركبتيه ، تناديان نظراته. احداهمـــا ، اليسرى ، كانت طويلة لدنة ، والأخرى كثيرة العقد وعاضلة . كان يعرفها ، وكان يتعرّف اليها ثانيـــة ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بهما متمايزتين ، كأنما هما جديرتان باعمال لم يكن لارادته أي شأن فيها . وقد أقبلت احداهمـــا تستند إلى جبينه لتقيم حاجزاً للحمّى التي كانت تطرق صدغيه . وانزلقت الأخرى على طول سترته وانسلّت إلى جيبه لتأخذ لفافة ، ولكنها ما لبثت ان أرتدّت إذ وعى هذه الرغبـة في التقيؤ التي كانت تخلّفه واهناً بلا قوة . وإذ عادتا إلى ركبتيه ، أستسلمت يداه ، واتخـــذت راحتاه شكل كأس . فقدّمتا لمرسو وجه حياته وقد أرتـــدّت إلى اللامبالاة ووهبت نفسها لكل من كان يريد أخذها .

وسافر لمدة يومين . ولكنه في هـــذه المرة . لم تكن غريزة الهرب هي التي تدفعه . كانت رتابة هذا السباق نفسها تغمره . وكانت هذه الحافلة التي تقوده

خلال نصف أوروبا تتركه بين عالمين . لقـــد أستقلتها وهو على وشك ان يغادرها . كانت تسجنه خارج حياة كان يريد ان يمحو حتى ذكراها لـكي تقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه الرغبة ملكة. ولم يضجر مرسو مرةً واحدة . كان يقبع في زاويته ، يكاد لا يُزعجـــه شيء . وكان ينظر إلى يديه ، ثم إلى المنظر ، ويفكر . وراق له ان يمدّد رحلته حتى برسلو ، لا يقوم إلا بجهد يسير عند الجمرك ليبدل التذكرة . كان يريد ان يستمر بعد في مواجهة حريته . كان تعباً ، ولم يكن يحس في نفسه القدرة على التحرك . كان يتلقّى في ذاته أصغر أجزاء قوته وادقّ آماله ، وكان يشدّها ويعيد جمعها ، وفي ذاته كان يعيد صنع ذاته ، ويصنع مصيره الآتي في آن واحد . كان يحب هذه الليـالي الطويلة التي ينسحب فيها القطار على السكك الزلقة ، ومروره العاصف في المحطات الصغيرة حيث الساعة وحدها مضيئة ، وانكباحه المفاجيء قبل أضواء المحطات الكبيرة هذا الوكر الذى ما يكاد يلاحظ حتى يكون قد بدأ يبتلع القطار ويصبّ في حافلاته ذهبه الوافر وضوءه وحرارته . وكانت مطرقات ترن على الدواليب ، وكانت القاطرة تحمحم بكل بخارها، وكانت حركة العامل الآلية ، وهو يخفض قرص المرور الأحمر ، تقـذف مرسو في السباق المجنون للترام حيث كان صحوه وقلقه وحدهما يسهران . ومن جديد كان تلاعب الظلال والأضواء المتشابك في الحافلة ، وغطـاء السواد والذهب . درسد ، بوتزن ، غرليتز ، ليغنتز ، وكان طوال الليل وحيداً بمواجهة ذاته، مالكاً كل وقته ليشكل حركات حياة قادمة ، وكان الصراع الصبور مع الفكرة التي تهرب عند منعطف محطـــة ، ثم تستسلم فيقبض عليها وتطارد ، وتلتحق بمحصلاتها ثم تهرب ثانية أمـام رقص الأسلاك الملتمعة بالمطر والأضواء. كان مرسو يبحث عن الكلمة أو الجملة التي ستعـبر عن أمل قلبه والتي سينتهي فيها قلقه . وفي حالة الضعف التي كان يعانيهـــا ، كان بحاجة إلى صِيَغ . وكان الليل والنهار ينقضيان في هذا الصراع العنيد مع الفعل والصورة اللذين سيحدّدان بعد الآن لون نظرته كله أمام الحياة ، والحلم الجنون

أو الشقي الذي يكوّنه عن مستقبله . كان يغمض عينيه . إن المرء بحاجة إلى وقت لكي يعيش، وككل عمل فني، تتطلب الحياة من المرء ان يفكر بها. وكان مرسو يفكر بحياته وينزّه وعيه المضطرب وارادته للسعادة في حافلة كانت في تلك الأيام ، بالنسبة له في اوروبا ، شبيهة باحدى تلك الحجرات التي يتعلم فيها الانسان ان يعرف الانسان عَبْرَ ما يتجاوزه .

وفي صباح اليوم التالي ، وبالرغم من البلد المنبسط ، فان القطار يتباطأ بشكل ملحوظ . كان على بعد ساعات من برسلو ، وكان النهار يتفتح على سهل سيليزي الطويل ، حيث لا شجرة ، اللزج من الوحل ، تحت سماء يغطيها ويملأها المطر . وعلى مد البصر وعلى مسافات منتظمة ، كانت طيور كبيرة سوداء ذات أجنحة براقة تطير أسراباً على ارتفاع أمتار من الأرض ، عاجزة عن الأرتفاع أعلى من ذلك تحت السماء الثقيلة كالبلاطة . كانت تحوم دوائر في طيران بطيء وثقيل ، واحياناً كان احدها يخرج عن السرب ، فيلامس الأرض ، حتى ليختلط بها ، ويبتعد بالطيران اللزج نفسه إلى ما لا نهاية حتى يبتعد مسافة كافية البعد لكي ينفصل كنقطة سوداء في السماء المبتدئة .

وكان مرسو قد مسح بيديه بخار الزجاج ، وكان ينظر بشغف ، من خلال الخطوط الطويلة التي كانت أصابعه قد تركتها على الزجاج. ومن الأرض الكدرة حتى السماء الفاقدة اللون، كانت ترتفع في نفسه صورة لعالم جاحد كان، لاول مرة ، يعود أخيراً إلى ذاته . وعلى هذه الأرض المُعادة إلى يأس البراءة ، كان مسافراً تائهاً في عالم بدائي، يستعيد روابطه ، وبقبضة مشدودة إلى صدره ، ووجه مسحوق على الزجاج، كان يمثّل أندفاعه نحو ذاته ونحو اليقين بالعظمة التي كانت تنام في نفسه . كان يود لو ينسحق في هذا الوحل ، ويغوص في الأرض بهذا الحمام من الصلصال وينتصب على السهل الذي لا حدود له ، مغطى بالوحل مشرع اليدين امام سماء الاسفنج والشحم، كأنما هو في وجه رمز الحياة المؤيس

الرائع ، ليؤكد تضامنه مع العـــالم في أشد صوره تنفيراً ، ويعلن عن نفسه شريكاً للحياة حتى في جحودها وقذارتها . وأخيراً انفجر الانـدفاع الهائل الذي كان يستبدّ به لأول مرة منـــذ رحيله . وسحق مرسو دموعه وشفتيه بالزجاج البارد . ومن جديد ، تغبّش الزجاج واختفى السهل .

•

بعد ساعات ، كان يصل إلى برسلو . ومن بعيد بدت له المدينـة كغابة من مداخن المعامل وقبب الكتدرائيات . ومن قريب ، كانت مبنية من القرميـــد والاحجار السوداء . وكان رجال الخوذات ذات المقدمات القصيرة يسيرون على مهل. وقد تبعهم، وأمضى الصبيحة في مقهى عمالي ، كان شاب يعزف فيه على الهرمونيكا : الحاناً ذات بلادة قوية وثقيلة تريح النفس . وقرر مرسو ان يعود فيهبط نحو الجنوب ، بعد ان يكون قد اشترى مشطاً . وفي اليوم التالي ، كان في فيينا ، فنام قسماً من النهار والليل باكمله . وعندما أستيقظ ، كانت الحمى قد سقطت كلياً . وأتخم نفسه بالبيض برشت والقشدة الطازجة عند الفطور ، ثم خرج وقلبه مُعفّر بعض الشيء ، في صبيحة تخترقها الشمس والمطر .

كانت فيينا مدينة منعشة . ولم يكن فيها شيء يُزار . كانت كاتدرائية القديس اتيان المفرطة الضخامة تضجره . وقد فضلّ عليها المقاهي التي كانت تواجهها ، وفي المساء ، مرقصاً صغيراً امام ضفاف القنال . وفي النهار كان يتنزه على طول « الرنغ » ، وسط ترف الواجهات الجميلة والنساء الانيقـات : كان يتمتع ، ردحاً من الزمن ، بهذا الديكور الخفيف المـــترف الذي يفصل الانسان عن ذاته في مدينة هي أقلّ المدنطبيعيةً في العالم . ولكن النساء كن جميلات ، وكانت الأزهار نامية باهرة في الحدائق ، وعلى « الرنغ » ، في المساء الهابط ، بين الجمع المتألق الرخيّ الذي كان يتنزه، كان مرسو يتأمل ، على قمة الانصاب، الانطلاق العبثي للخيول الحجرية في المساء الأحمر. آنذاك فقط تذكر روز وكلير، صاحبتيه. ولأول مرة منذ رحيـــله، كتب رسالة . والحقيقة ان

فيض صمته هو ما كان ينسكب على الورق .

« صغيرتيّ :

أكتب اليكما من فيينا . لا أدري ما ألمّا اليه . أما أنا ، فإنني أكسب حياتي بالسفر . رأيت بمرارة قلب كثيراً من الأشياء الجميلة . هنا ، اخلى الجمال المكان للحضارة . وهذا مريح . انني لا أزور كنائس ولا امكنة اثرية . انني اتنزه على« الرنغ » . وحين يأتي المساء فوق المسارح والقصور الباذخة ، يلقي انطلاق الخيول الحجرية الاعمى عند المغيب الأحمر في نفسي مزيجاً فريداً من المرارة والسعادة. في الصباح أفطر بيضاً برشت وقشدة طازجة . أنهض متأخراً، والفندق يحيطني بمجاملاته ، انني متأثر لأسلوب رؤساء خدم الفندق ومتخم بالطعام اللذيذ (أوه ما اطيب هذه القشدة الطازجة !) . يوجد هنا مناظر جميلة ونساء جميلات . ولا تنقصني إلا شمس حقيقية .

ما الذي تفعلانه ؟ تحدثا عنكما وعن الشمس الى المسكين الذي لا يمسكه شيء في أي مكان والذي يظل صديقكما المخلص: باتريس مرسو . »

ذلك المساء، حين انتهى من الكتابة، عاد الى المرقص . كان قد حجز لنفسه السهرة مع إحدى الساقيات، هيلين، التي كانت تعرف بعض الفرنسية وتفهم ألمانيته الرديئة . وحين خرج من المرقص في الثانية صباحاً ، أعادها الى منزلها، وفعل الحب كأحسن ما يُفعل في العالم، ووجد نفسه في الصباح ، عارياً، في سرير غريب ، ملتصقاً بظهر هيلين التي كان يتأمل بلا مبالاة وابتهاج ردفيها الطويلين وكتفيها العريضتين . وذهب من غير ان يريد إيقاظها ، ودسّ ورقة في احد حذائيها. وفي اللحظة التي بلغ فيها الباب سمع من يناديه : « ولكنك يا حبيبي قد اخطأت » . فعاد نحو السرير : كان قد اخطأ بالفعل ، فقد كان يجهل العملة النمسوية ، لذلك فقد ترك ورقة بخمسمئة شلنغ بدلاً من مئة . قال وهو يبتسم: «لا. إنها لك . لقد كنت لطيفة جداً » . والتمع وجه هيلين ، المنقط

بالنمش تحت الشعر الاشقر والمشعث ، بابتسامة . وفجأة انتصبت واقفــة على السرير وقبلته على الخدين. وفجّرت هذه القبلة، الاولى بلاشك التي أعطته اياها من كل قلبها ، فجرت في مرسو دفعة من التأثر . فألقاها على السرير وغطاها ، ثم رجع الى الباب ونظر اليها وهو يبتسم . قال : « وداعاً » . وجحظت الاخرى بعينيها فوق الغطاء المرفوع تحت الانف وتركته يختفي من غير ان تجد كلمـــة .

وبعد أيام تلقى مرسو جواباً مؤرخاً من مدينة الجزائر :

«عزيزنا باتريس .

نحن في مدينة الجزائر. ستكون صغيرتاك سعيدتين جداً لرؤيتك من جديد. فاذا لم يكن ثمة ما يمسكك في أي مكان ، فتعال الى الجزائر . اننا نستطيع ان ننزلك في « البيت ». امـا نحن ، فسعيدتان : اننا طبعاً نشكو بعض الخجل ، ولكن ذلك بالأحرى بسبب اللياقة . وان لذلك ايضاً علاقة بالاحكام المسبقة . اذا كنت مهتماً بان تكون سعيداً ، فتعال جرّب ذلك هنـا . فهذا أفضل من ان تكون ضابط – صف مجدد التطوع . نقدم جبهتنا لقبلاتك الأبوية .

روز ، كلير ، كاترين . »

ملاحظة – تحتج كاترين على كلمة « أبوي ». كاترين تسكن معنا، وستكون ، إن اردت ذلك ، صغيرتك الثالثة . »

وقرر أن يعود الى مدينة الجزائر عن طريق جنوى . وكما يحتاج آخرون الى عزلة قبل ان يتخذوا قراراتهم الخطيرة ويلعبوا اللعبة الاساسية لحيـاة ما ، فقد كان هو ، المسمم بالوحدة والغرابة ، بحاجة الى ان يحتمي بالصداقة والثقة وان يتذوق اماناً ظاهراً قبل ان يبدأ لعبته .

وفي القطار الذي كان يقله الى جنوى عن طريق ايطاليا الشمالية ، كان ينصت الى آلاف الاصوات التي كانت تغني فيه نحو السعادة . وعنـــد أول

شجرة شربين منتصبة على الأرض الطاهرة ، كان قد ارتخى . كان مـــا يزال يحس ضعفه وحمّاه . ولكن شيئاً ما في نفسه كان قـد استرخى وتمدّد . وفيما بعــد ، بقدر ما كانت الشمس تتقدم في النهار ويقترب البحر ، تحت السماء الكبيرة المتوهجة المتحفزة حيث تسيل على شجرات الزيتون المرتعشة انهـار من الهواء والضوء ، كان الهوس الذي يحرك العالم يتجاوب مع حماس قلبه . وكان صوت القطار والثرثرة الطفولية التي كانت تحيط به في المقصورة المكتظة ، وكل ما كان يضحك ويغني حوله ، يتناغم ويصاحب نوعـاً من الرقص الداخلي ألقاه ، لمدة ساعات ، جامداً في أربعة أرجاء المعمورة ثم صبّه اخيراً مبتهجاً منذهلاً في جنوى المصمّة التي كانت تتفجر صحــة أمام خليجها وسمائها، حيث كانت اللذة والكسل يتصارعان حتى المساء . كان متعطشاً للحب والمتعــة والتقبيل . وقد ألقته الآلهة التي كانت تحرقه، في البحر ، في زاوية صغيرة من المرفأ ، حيث تذوق القطران والملح ممزوجين، وأضاع أقصى مداه لفرط مــا سبح . وتاه فيما بعد في الطرقات الضيقة المليئة بروائح الاحياء القديمة ، وترك الألوان تزأر من أجله ، والسماء تستنفد نفسها فوق البيوت تحت وطأة شمسها، والقطط ترتاح بــين القذارات والصيف . ومضى الى الطريق التي تشرف على جنوى ، وترك البحر كــله المحمل بالعطر والأضواء يصعد اليه ، في انتفاخ طويل . وكان يحضن الحجر الساخن الذي كان قد جلس عليه ، وهو يغمض عينيه ، ليفتحهما على هذه المدينة التي كان زخم الحياة فيها يزمجر بـذوق رديء مهيج . وفي الأيام التي تلت ، كان يحب ايضاً ان يجلس على الحاجز الذي ينحدر نحو المرفـأ ، وعند الظهر كان ينظر الى الفتيات الصبيات يمررن عائدات من المكاتب الى المرفأ . كانت الفتيات ينتعلن الصنادل ، محرَّرات النهود في اثواب زاهية خفيفة ، فكنّ يتركن مرسو جاف اللسان خافق القلب برغبة كان يجد فيها في آن واحــد حرية وتبريراً. وفي المساء، كانت النساء أنفسهن، هن اللواتي كان يلتقي بهن في الطرقات، فيتبعهن يرافقه في أحشائه الوحش الحـار

الملتف بالرغبة الذي كان يتحرك بعذوبة ضارية . وخلال يومين ، تحرّق في هذه الحميّا اللاأنسانية . وفي اليوم الثالث غادر جنوى الى مدينة الجزائر .

وطوال الرحلة ، كان يتأمل الاعيب الماء والضوء ، في الصباح ، وفي قلب النهار وفي المساء على البحر ، فيؤالف قلبه مع دقات السماء البطيئة ويعود الى ذاته . كان يحذر من ابتذالية بعض الشفاءات . وحين كان يتمدد على الجسر ، كان يدرك انه لم يكن له ان ينام بل ان يسهر ، ان يسهر ضد الاصدقاء ، وضد رفاهية النفس والجسد . ولقد كان عليه ان يبني سعادته وتبريره . وستكون المهمة الآن بالنسبة له أيسر بلا شك . وحيال السلام الغريب الذي كان ينفذ اليه امام المساء الذي يغدو فجأة اكثر رطوبة على البحر ، والنجمة الأولى التي تقسو ببطء في السماء حيث كانت الاشعة تموت خضراء . لتحيا من جديد صفراء ، حيال ذلك كله ، كان يحس بعد هذا الصخب الكبير وهذه العاصفة ان ما كان في نفسه غامض ورديء يرسب ليبقى من بعده الماء الصافي الشفاف لنفس تعود الى الطيبة والعزم كان يرى بوضوح . وكان قد أمّل طويلاً بحب امرأة. على انه لم يكن قد ُصنع من اجل الحب . فخلال حياته ، في مكتب المرفأ ، وغرفة نومه ، ومطعمه وعشيقته ، كان قد لاحق ،ببحث فريد ، سعادة كان في اعماق ذاته ، وكجميع الناس ، يعتقدها مستحيلة . كان قد لعب لعبة إرادة ان يكون سعيداً. ابداً لم يكن قد أرادها بتصميم واع محرّر . ابداً وحتى الآن . وابتداء من هذه اللحظة ، وبسبب حركة واحدة محسوبة بكل وعي ، كانت حياته قد تغيرت ، وكانت السعادة ممكنة . كان بلا شك قد ولد في الآلام هذا الكائن الجديد . ولكن اية قيمة كانت له اذا قيس بالمهزلة المهينة التي كان يلعبها فيما مضى . كان يرى مثلاً ، ان ما كان قد شدّه الى مارت ، كان الغرور اكثر مما كان الحب ، بما في ذلك معجزة الشفتين اللتين كانت تمدهما له ، تلك المعجزة التي لم تكن سوى الدهشة الفرحة لقدرة كانت تتعرف على ذاتها وتتفتح على الانتصار . وكل تاريخ حبه كان في الحقيقة استبدال هذه

الدهشة الأولية بيقين ، وتواضعه بغرور . كان قد أحب فيها هذه الأمسيات التي كانا يظهران فيها في دور السينما والتي كانت الانظار تتجه فيها نحوهـــا ، وتلك اللحظة التي كان يقدّمها فيها الى العالم . كان يحب فيها ذاته وقدرته وطموحه لأن يحيا. ولعل لذته نفسها ومذاق جسده كله العميق ربما كان صادراً من هـذه الدهشة الأولى لامتلاك جسد جميل جمالاً فريداً ، والسيطرة عليـــه واذلاله . والآن كان يدرك انه لم يكن مصنوعاً لهذا الحب ، بل للحب البريء العنيف لإله اسود سيتعبّده بعد الآن .

وكما يحدث غالباً ، كان احسن ما في حياته قد تركّز حول أسوأ ما قـد كان فيها : كلير وصديقاتها،وزغرو وإرادته للسعادة حول مارت. وكان يدرك الآن ان على ارادته للسعادة ان تتقدم . ولكن لأجل ذلك كان يدرك ان عليه ان يتوافق مع الزمن،وان امتلاك الوقت كان في آن واحد اجمـــل التجارب ، واخطرها، والبطالة ليست شؤماًالا على الارديا‌ء.بل ان كثيرين لا يستطيعون ان يثبتوا انهم غير أردياء . وكان هو قد امتلك هذا الحق . ولكن كان مـا يزال يفتقر الى اقامة الدليل . شيء واحد كان قد تغير . كان يحس نفسه حراً تجاه ماضيه ، وتجاه ما كان قد فقده . لم يكن يريد إلا هذا الحصر وهـــذا الحيّز المغلق في ذاته ، وهذه الحيا الواعية الصبور أمام العالم .

كان يود فقط ان يضم حياته بين يديه ، كما يُضغط خبز حارّ ويُنهك ، او كما فعل في ليلتي القطار الطويلتين اللتين كان يستطيـع ان يتحدّث فيهما مع نفسه ويتهيأ للحياة . كان يودّ ان يلحس حياته كقطعة حلوى ، ان يكوّنها ، ان يشحذها واخيراً ان يحبها . هنا ، كان يكمن كل هواه . وحضور ذاته هـذا لذاته كان جهده بعد الان مبذولاً لكي يبقيه امام جميع وجوه حياته ، حتى مقابل وحدة كان يدرك الان كم هو صعب احتمالها . إنه لن يخون أبداً . فعنفه كله كان يساعده في ذلك ، والنقطة التي كان يحمله اليها ، كان حبّه يلتقي عندها كشهوة جامحة الحياة .

كان البحر يتكسر بهدوء على جوانب المركب. وكانت السماء تمتلىء بالنجوم، وكان مرسو صامتاً يحس في نفسه قوى فائقة عميقة ليحب هذه الحياة ويعجب بها، هذه الحياة ذات الوجه المصنوع من الدموع والشمس، هذه الحيـــاة في الملح والحجر الحار، وكان يخيّل له ان جميع قوى الحب واليأس لديه ستتضافر لكي تداعبها. وهنا كان يكمن فقره وغناه الفريد. كان ذلك كما لو أنـــه، انطلاقاً من الصفر، كان يستأنف اللعبة، ولكن مع وعيه لقواه وللحمى الواعية التي كانت تضغط عليه في وجه مصيره.

وبعد ذلك كانت مدينة الجزائر، والوصول البطيء عند الصباح، وشلال القصبة الباهر فـــوق البحر، والتلال والسماء، والجون بذراعيه المبسوطتين، والبيوت بين الاشجار ورائحة المرافيء التي بدأت تقترب. وإذ ذاك لاحظ مرسو أنه، منذ فيينا، لم يكن قد فكر مرة واحدة بزغرو على أنه الرجل الذي كان قد قتله بيديه. وعرف في نفسه ملكة النسيان، تلك التي لا يمتلكها إلا الطفـــل، والعبقري والبريء. وبريئاً، مبلبلاً بالفرح، أدرك أخيراً انه كان مخلوقـــاً للسعادة.

الفصل الثالث

يتنـاول باتريس وكاترين فطورهما تحت الشمس ، على السطيحة . ترتدي كاترين ثياب السباحة ، و«الفتى » ، كما تدعوه صديقاته ، يرتدي « السليب » ، وحول عنقه منشفة . إنهما يأكلان بندورة مع الملح ، وسلطة البطاطا ، وعسلاً وفاكهة بكمية كبيرة ، ويضعان دراقاً ليبرد في الثلج ، وحين يرفعانه ، يلحسان قطرات العرق عن زغب القشرة المخملي . كما أنهما يعدان عصير العنب ويشربانه وهما يرفعان وجهيهما نحو الشمس من أجل تسميرهما (على الأقـل باتريس الذي كان يعلم ان السمرة في صالحه .)

قال باتريس ، وذراعه ممدودة نحو كاترين :

ـ استنشقي الشمس .

ولحست الذراع ، وقالت :

ـ اجل ، استنشق انت ايضاً .

فاستنشق ثم تمدد وهو يلامس خاصرتيه .. اما هي فقد استلقت على بطنها وأنزلت ثيابها حتى كليتيها .

ـ هل أنا فاحشة ؟

قال الفتى الذي لم يكن ينظر :

ـ لا .

وسالت الشمس وتباطأت على وجهها ، كانت مسامه رطبة بشكل طفيف ، فأخـــذ يتنفس هذه النار التي كانت تغمره وتنيمه . وخمّرت كاترين شمسها وتأوّهت وأنّت ، ثم قالت :

— هذا لذيذ .

قال الفتى :

— نعم.

كان البيت معلقاً عند قمة تلة كان الجون يُرى منهـــا . وفي الحي ، كانوا يسمونه « بيت الطالبات الثلاث » . وكان يصعد اليه بطريق شديد الوعورة يبدأ في شجرات الزيتون وينتهي بها . وفي وسطه ، كان يشكل نوعـــاً من المنبسط ، على طول حائط رمادي مغطى برسوم داعرة واستشهادات سياسية ، كانت قراءتها تعيد التنفّس للمسافر المنهوك . وبعـــد ذلك ، كانت شجرات الزيتون ايضاً ، وغسيل السماء الأزرق بين الاغصان ، ورائحة المصطـكا على طول الحقول المحمرة حيث كانت أقمشة بنفسجية صفراء وحمراء تجف . وكان المرء يصل ، وقد غرق في ضيق شديد من العرق والتنفس ، ويدفع حاجزاً صغـــيراً أزرق وهو يتحاشى مخالب الجهنميات ، ويبقى عليه ايضاً ان يتسلق سلماً واقفـاً كسيبة ، ولكنه مغطى بظلال زرقاء كان بالامكان عندها تخفيف العطش. وكانت روز وكلير وكاترين والفتى يسمونه « البيت أمام العالم » . كان مشرعـــاً بأكمله على الطبيعة ، فكان كسلّة منطاد متدلياً في السماء الباهرة فوق رقص العالم الملوّن . وابتداء من الجون حتى المنحنى الكامل ، في الاسفل ، كان نوع من الاندفاع يمزج الاعشاب والشمس ويحمل الصنوبر والشربين و الزيتونات المغبرة والاوكالبتوس حتى اقدام البيت . وفي قلب هذه الهبة كانت تزدهر ، وفقاً للفصول ، زهور النسرين البيضاء ، والميموزا ، وزهور العسل هذه التي كانت تترك عطرها يصعد من جدران البيت في أمسيات الصيف . كان « البيت أمام العالم » بغسيله الأبيض

وسقوفه الحمراء، وبابتسامات البحر تحت السماء المشبوكة بلا ثنيّة من أول الافق حتى منتهاه، يشرع عنبياته العريضات على هـــذا المعرض من الالوان والاضواء. ولكن، في البعيد، كان خط من الجبال العالية البنفسجية يلتقي بالجون عند منحدره الأقصى فيحتوي هذه النشوة في رسمها البعيد. واذ ذاك، لا يمكن لأحد ان يتأفف من الطريق الشاق ومن التعب. كان على المرء كل يوم ان يكتسب فرحه.

ان يعيش الانسان هكذا أمام العالم، وان يحس ثقله وان يرى وجهـــه يشرق كل يوم ثم يخبو للغد، ويحترق بكل شبابه، فقد كان ذلك يمنح سكان البيت الأربعة وعيا بحضور كان بالنسبة لهم حكماً وتبريراً. فالعالم، هنا، كان يصبح شخصاً، وكان يُحسب بين أولئك الذين نستمد منهم النصيحة بقبــول اكثر، أولئك الذين لم يقتل التوازن عندهم الحب كانوا يتخذونـــه شاهداً:

كان باتريس يقول في معرض أيّ حديث: «أنا والعالم، لا نقرّكم»

اما كاترين التي كان العري بالنسبة لها يعني التخلص من الاحكام المسبقة، فقد كانت تفيد من غياب الفتى لتتعرّى على السطيحة، وتتأمل تبدل الوان السماء. وكانت تقول، على الطاولة، بلهجة من الغرور الحسي:

ـ كنت عارية أمام العالم.

وكان باتريس يقول باحتقار:

ـ اجل. ان النساء يفضلن بالطبع افكارهن على أحاسيسهن.

وعندها كانت كاترين تقفز لأنها لم تكن تريد أن تكون مثقفة. وكانت روز وكلير تصرخان معاً:

ـ اسكتي كاترين، انك على خطأ.

ذاك انه كان من التعارف عليه ان كاترين كانت دائماً على خطأ ، مادامت هي التي كان الجميع يحبها بالطريقة نفسها . لقد كانت تملك جسداً وازناً ومرسوماً، بلون الخبز المحروق، وكان لديها الغريزة الحيوانية بكل ما هو أساسي في العالم . ولم يكن احد أجدر منها بتمييز اللغة العميقة للاشجار والبحر والهواء .

وكانت كلير تقول ، وهي تأكل بلا انقطاع :

– هذه الصغيرة ، هي احدى قوى الطبيعة .

ثم كان الجميع يذهبون ليتدفأوا بالشمس ويصمتوا . ان الإنسان يحط من قوة الانسان. في حين ان العالم يترك كها بكراً. ولقد كانت روز وكلير وكاترين وباتريس ، عند نوافذ بيتهم ، يعيشون في الصور وفي الظاهر ، وكانوا يرتضون هذا النوع في اللعب الذي كانوا يعقدونه في ما بينهم ، وكانوا يضحكون للصداقة كما يضحكون للحنو ، ولكن عندما كانوا يمثلون من جديد أمام رقص السماء والبحر ، كانوا يجدون اللون الخفي لمصيرهم فيتلاقون اخيراً باعمق ما في ذواتهم . وكانت القطط احياناً تأتي لتلتحق بأسيادها . كانت « غولا » تتقدم ، مهانة باستمرار ، نقطة استفهام سوداء بعينين خضراوين، نحيفة وناعمة ، مأخوذة فجأة بالجنون ، متخبطة ضد اشباح . وكانت روز تقول :

– « انها مسألة غدد صماء . »

ثم كانت تضحك ، فاتحة نفسها كلها لضحكتها ، بشعرها المجعد ، وعينيها المزمومتين المبتهجتين وراء نظارات مستديرة ، حتى تقفز عليها غولا (وهذه خطوة خاصة) . وحين تمر أصابعها التائهة على الوبر اللماع ، تلين روز ، وتسترخي. واذ تصبح قطة ذات عينين ناعمتين ، تهدىء الوحش بيدين لطيفتين أخويتين . ذاك ان القطط كانت الباب الذي تخرج منه روز الى العالم ، كما كان العري

باب كاترين . وكانت كلير تفضل القط الاخر الذي هو « كالي » . كان هادئاً ساذجاً كوبره الأبيض المتسخ ، وكان يستسلم للتعذيب، وكانت كلير ذات الوجه الفلورنسي ، تحس آنذاك بروحها رائعة . كانت صموتاً ومغلقة على ذاتها ، تتخللها انفجارات مفاجئة ، وكانت تملك شهية جيدة . وكان باتريس يراها تسمن فيوبخها .

كان يقول :

— انك تبعثين فينا القرف : ان كائناً جميلاً لا يحق له أن يقبح.

ولكن روز كانت تتدخل :

— متى ستنتهي من معاكسة هذه الطفلة ؟ كلي يا اختي كلير .

وكان اليوم يدور من الشروق حتى المغيب حول التلال وعلى البحر تحت الشمس اللطيفة . كانوا يضحكون ، وينكتون ويضعون المشاريع . كل منهم يبتسم للمظاهر ويتظاهر بأنه يخضع لها . وكان باتريس يتنقل من وجه العالم الى وجوه النساء الشابات الرصينة الباسمة . وكان أحياناً يندهش من هذا الكون المنبعث حوله : ثقة وصداقة ، شمس وبيوت بيضاء ، ظلال من الفروق لا تكاد تسمع ، هنا كانت تولد سعادات بكر كان يقيس صداها الدقيق . وكانوا يقولون فيما بينهم ان « البيت أمام العالم » ليس بيتاً يتسلى فيه المرء ولكنه بيت يكون فيه المرء سعيداً . وكان باتريس يحس ذلك جيداً ، عندما تكون الوجوه متجهة نحو المساء ، فيفتحون نفوسهم جميعاً ليدخلها ، مع آخر نسمة ، الاغراء الانساني الخطر في ان لا يشبه المرء شيئاً .

ذهبت كاترين ، هذا اليوم بعد حمام الشمس ، الى المكتب، فقالت روز وقد انبثقت فجأه :

— عزيزي باتريس ، لديّ خبر سارّ أعلنه لك .

في الغرفة – السطيحة ، كان الفتى متمدداً بشجاعة على أريكة ، في هـذا اليوم ، وبين يديه رواية بوليسية . قال :

– يا عزيزتي روز . انني أصغي إليك .

– ان هذا اليوم هو دورك للطبخ .

قال باتريس من غير ان يتحرك :

– حسناً .

وذهبت روز ، حاملة حقيبتها المدرسية ، التي وضعت فيها بلا تمييز فليفلة الغداء ومجلد « التاريخ» الجزء الثالث ، المضجر ، لمؤلفه لافيس.

وأخذ باتريس، الذي كان عليه ان يطبخ فاصوليا، يتسكع حتى الساعة الحادية عشرة ، فيتأمل الغرفة الكبيرة بحيطانها المغبرة ، المفروشة بالأرائك والرفوف والاقنعة الخضراء والصفراء والحمراء ، وبالطنافس الحريرية ذات التخطيطات البرتقالية ، ثم غلى العدس بمفرده ، ووضع الزيت في القدر ، وبصلة للتطرية وبندورة وإربياناً محشواً ، وانهمك وهو يلعن غولا وكالي اللذين كانا يحتجان من فرط الجوع ، بالرغم من ان روز قد شرحت لهما البارحة قائلة :

– يجب ان تعلما ، ايها القطان ، ان الجو في الصيف هو أشدّ حرارة من ان يشعر فيه أحد بالجوع .

قبل الظهر بربع ساعة ، وصلت كاترين ، مرتدية فستاناً خفيفاً وصندلاً مكشوفاً . وكانت بحاجة الى حمام بارد وحمام شمسي ، ولهذا فستكون آخر من يجلس الى المائدة، وستقول روز بقسوة .

– انك غير محتملة ، كاترين .

والماء يصفر في الحمام ؛ وها هي كلير تقول لاهثة :

– هل تطبخ عدساً ؟ إن لدي وصفة جيدة جداً .

– انني اعرف . آخذ زبدة طازجة .. إنك تكرّرين كلامك يا عزيزتي كلير .

والواقع انّ جميع وصفات كلير تبدأ دائماً بالزبدة الطازجة .

قالت روز القادمة لتوّها :

– انه على حق .

قال الفتى :

– نعم .. لنجلس الى الطاولة .

أكلوا في مطبخ هو في الوقت نفسه مخزن للوازم . وكان فيه كل شيء حتى مفكرة لتسجيل نكات روز . قالت كلير :

– لنكن لائقين ، ولكن بسطاء .

وأكلت سجقها بأصابعها . ووصلت كاترين بتأخير ملائم ، ثملة مكتئبة ، شاحبة العينين من النعاس . ولم يكن في روحها ما يكفي من المرارة لتفكر بمكتبها – ثماني ساعات تنتزعها من العالم ومن حياتها لتمنحها الى آلة كاتبة . وصديقاتها يدركن ويفكرن بما عساها ستكون حياتهن اذ تبترها هذه الساعات الثماني ، وكان باتريس صامتاً .

قالت روز ، التي لا تحب ، مظاهر الحنان والعطف :

– إن هذا في الواقع بشغلك . ثم انك قبل كل شيء تحدثيننا عن مكتبك كل يوم .. أننا نحرمك حق الكلام .

وتأوهت كاترين قائلة :

– ولكن ...

– بالتصويت ، في هذه الحالة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الأغلبية ضدك .

قالت كلير :

– إنك ترين .

ووصل العدس ، مفرط الجفاف . فأكلوا جميعاً بصمت . عندما تطبخ كلير ، تتذوق الطعام على الطاولة ثم تضيف دائماً بلهجة راضية :

– ولكن هذا ممتاز !

أما باتريس،الذي يحافظ على رصانته ، فيفضل السكوت حتى اللحظة التي ينفجر فيها الجميع بالضحك . وكاترين التي لم تكن ذلك اليوم موفقة في خيالاتها ، ولكنها كانت تريد الحصول على اسبوع عمل بأربعين ساعة ، فقد طلبت منهم ان يرافقوها الى « الاتحاد العام للعمل » .

قالت روز :

– لا ، انك انت التي تعملين ، بعد كل حساب.

وذهبت « قوة الطبيعة » لتستلقي في الشمس وهي ساخطة . ولكن ما لبث الجميع أن وافوها الى هناك ، واعتقدت كلير ، وهي تداعب بإهمال شعر كاترين ، ان ما ينقص « هذه الطفلة » هي في الحقيقة رجل . ذلك أن العادة المألوفة في « البيت أمام العالم » هو أن يقرروا مصير كاترين ، وان ينسبوا اليها حاجات يحددون لها امتدادها وتنوعها . صحيح انها كانت تلاحظ من وقت الى آخر انها راشدة كفاية ، ولكنهم لا يستمعون اليها . وتقول روز :

– يا للمسكينة ! إنها بحاجة الى عشيق .

وبعد ذلك يستسلم الجميع لحرارة الشمس ، فتروي كاترين ، التي لم تكن حقودة ، حكاية من حكايات مكتبها وكيف ان الآنسة بيريز،الشقراء الطويلة ، التي ستتزوج عما قريب، تطوف على الدوائر لتتوثق من الاوصاف الخفيفة التي يسر

المسافرين ان ينعتوهابها ، وكيف صرخت ، وهي تبتسم عندمـــا عادت من العطلة التي اخذتها بمناسبة الزواج: «لم يكن ذلك فظيعاً الى هذا الحد».وتضيف كاترين في رثاء : « انها في الثلاثين » .

وقالت روز مستنكرة هذه القصص الخطيرة : « عجباً ، يا كاترين ، تنسين ان الموجودات هنا لسن فقط فتيات صبيات » .

في هذه الساعة ،يمرّ البريد الجوي فوق المدينة ،وينـزه زهو معدنه اللامـــع على الارض وفي السماء ، ويدخل في حركة الجون ، فينحني مثلها ، ويندمـــج بسياق العالم ، متخلياً هنا عن لعبه ، وينعطف فجأة ، ويغطس طويلاً في البحر ويحطّ في انفجار كبير من الماء الأبيض والأزرق. وتمدد غولا وكالي على جنبيها، ومن خـــلال شدقيها الصغيرين الشبيهـــين بفم الأفعى كان يتراءى سقف حلقها الوردي، وكانت احلام مترفة فاحشة تخترقها وتحـــدث ارتعاشات في جنبيها. وسقطت السماء من الأعـالي بكل حملها من الشمس والألوان . واحست كاترين ، وهي مغمضة العينين ، بالسقوط الطويل العميق الذي يعيدها الى اعماق ذاتها حيث يتحرك بلطف هذا الحيوان الذي ينتعش كأنه إله .

في الأحد التالي ، انتظروا ضيوفاً . وكان على كلير ان تطبخ . وقـــد قشرت روز الخضر ، وهيأت الصحون والطاولة . ثم وضعت كلير الخضر في الأوعية وراقبت الطبخ وهي تقرأ في غرفتها . وبما ان مينا لاموريسك لم تأت ذلك الصباح لأنها فقدت والدها للمرة الثالثة في السنة ، فقـد قامت روز أيضاً بالتنظيف . ووصل المدعوون ، وعلى رأسهم اليان ، التي يدعوهـــا مرسو «المثالية» فتسأله: «ولماذا ؟» فيجيبها : «لأنه حين يقال لك شيء حقيقي يغيظك تقولـــين : هذا صحيح ، ولكنه غير صالح » .

والبان ذات قلب طيب وتجد نفسها شبيهةبـ « رجل القفاز »وهو شبه ينكره عليها الجميع.ولكن غرفتها الخاصة مفروشة برسوم « رجل القفاز ». والبان تدرس . وفي أول مرة جاءت الى « البيت أمام العالم » صرحت بانها مسحورة بانعدام الاحكام المسبقة عند ساكنيه . ومع الزمن ، وجدت هذا أقل ملاءمة . فان لا يكون لديك أحكام مسبقة ، فذلك يتضمن ان تقول لها ان القصة التي روتها وأتقنتها بما أضفته عليها من عنايات انما هي قصة مضجرة تماماً ، وان تصرّح بمحبة عند أقل جملة : « اليان ، لست سوى حمقاء » .

عندما دخلت اليان المطبخ مع « نويل » ، المدعو الثاني الذي يمتهن مهنة النحات ، وقعت على كاترين التي لم تكن تطبخ ابداً بوضع طبيعي . كانت مستلقية على ظهرها تأكل عنباً بيد وتحرك المايونيز الذي ما يزال في أوله بيدها الاخرى . اما روز ، التي كانت ترتدي مريولاً أزرق كبيراً ، فكانت تتأمل ذكاء غولا التي قفزت على الثريد لتأكل طعام الظهر.

قالت روز مغتبطة :

— لاحظي كم هي ذكية !

قالت كاترين :

— نعم، انها تتفوق اليوم على ذاتها .

وأضافت ان غولا التي تزداد ذكاء قد كسرت هذا الصباح المصباح الصغير الاخضر وإناء للورود .

وقرر اليان ونويل ، اللذان كانا بلا شك مبهورين اكثر مما ينبغي ليعبرا عن قرفهما ، قررا ان يتخذا لنفسيهما مقعداً لم يفكر احد ان يقدمه لهما . ووصلت كلير ، لطيفة مسترخية ، فصافحت الأيدي وتذوقت حساء السمك على النار . وفكرت ان بالامكان الجلوس الى المائدة . ولكن باتريس هذا اليوم

كان متأخراً . إلا انه ما لبث أن وصل ، وبذلاقة لسان ، شرح لكلير انــه سعيد لأن النساء كن جميلات في الشوارع .

كان الموسم الحار في مطلعه ، ولكن الاثواب الزاهية التي ترتجف تحتهـا اجسام قاسية قدظهرت. وبسبب ذلك أحس باتريس بفمه جافاً، وصدغيه خافقين وأحشائه حارة، وأمام هذه الدقة في التعابير ، لزمت اليان وطهرها الصمت . وعلى المائدة ، تلا الذعر اولى ملاعق حساء السمك . قالت كلير ، المغنــاج، باسلوب صاف جداً :

ـ اخشى ان يكون لهذا الحساء طعم بصل محروق .

قال نويل ، الذي كان الجميع يحبون قلبه الطيب :

ـ ولكن لا .

وإذ ذاك رجته روز، لتمتحن هذا القلبالطيب، انيشتري للبيت عدداً من الاشياء النافعة كسخـّان للحمام وسجاد عجمي وبراد. وأجاب نويل مشجعاً روز على ان تصلي له ليربح هو نفسه في اليانصيب .

قالت روز بواقعية :

ـ ما دام علينا ان نصلي، فاننا نصلي لأجلنا!

كان الجو حاراً حرارة كثيفة تجعل الخمر المثلج والفاكهة المجلوبة لتوهـــا أطيب مذاقاً . وعند تناول القهوة ، تتحدث اليان عن الحب بشجاعة كبيرة . فلئن أحبت ، ستتزوج . قالت لها كاترين ان اكثر الامور إلحاحاً عندما يحب المرء هو ممارسة الحب. وكان ان شنعتهذهالسياسة المادية اليان . أمـا روز ، البراغماتية ، فانها كانت توافقها « لو لم تكن التجربة ، مع الاسف ، قــد اثبتت ان الزواج يقتل الحب » .

ولكن اليان وكاترين تقسران افكارهما في المعاكسة فتصبحان جائرتين كما

يحصل عندما يكون المرء صاحب مزاج . أمـــا نويل ، الذي يفكر حسب الأصول والمألوف فيعتقدبالمرأة وبالأولاد وبالحقيقة الأبوية في حياة حسية وازنة. وإذ أرهقت روز بصراخ اليان وكاترين ، تصنعت انهـا تفهم فجأة الغاية من زيارات نويل العديدة . قالت :

ـ انني أشكرك ؛ ولن أستطيع ان أعبّر لك عن مبلغ تأثري بهـــذا الاكتشاف . وسأتحدث منذ الغـــد الى والدي عن « مشروعنا » وتستطيـع أن تحدثه عن طلبك في غضون أيام .

قال نويل الذي لم يفهم جيداً :

ـ ولكن ...

قالت روز باندفاع كبير :

ـ أوه . انني أعلم . انني أفهمك من غير ان تكون بحاجة للكلام . إنك من أولئك الذين يصمتون وهم يحتاجون الى أن يفهموا . والحـــق أنني سعيدة لكونك افصحت عن رأيك ، لأن تكرار زياراتك قـد بدأ يمسّ طهارة سمعتي .

وبدا نويل مسروراً قلقاً بعض الشيء،فأعلن عن ابتهاجه برؤية رغباتـــه وقد تُوّجت .

قال باتريس هـو يشعل لفافـة :

ـ من غير ان تحسب ان عليك ان تسرع . فان وضـع روز يلقي عليك تبعةً في استعجال الأمور .

قال نويل :

ـ ماذا ؟

قالت كلير :

– يا الهي ! اننا لسنا بعد إلا في الشهر الثاني .

وأضافت روز بحنان واقتناع :

– ثم انك بلغت السن التي يكون فيها المرء سعيداً بان يتعرف على ذاته في طفل رجل آخر .

وتجّهم نويل قليلاً، وقالت كلير، بلهجتها الطفولية الطيبة :

– انها مزحة ! ينبغي أن تأخذها بروح النكتة . لننتقل الى الصالون .

وفي اللحظة نفسها انتهى النقاش حول المبادىء . ومع ذلك فان روز التي تقوم بتصرفاتها الجيدة في الخفاء تتحدث بهدوء الى اليان . وفي الغرفة الكبيرة ، وقف باتريس عند النافذة .

واستقامت كلير مستندة الى الطاولة واستلقت كاترين على الحصير . أما الآخرون فقد جلسوا على الديوان ، وكان ضباب كثيف يرفّ على المدينة والمرفأ . ولكن السفن الجرّارة تستأنف عملها ، وتحمل نداءاتها الرصينة الى هنا ، مع روائح القطران والسمك ، عالم الهياكل الحمراء والسوداء والمرابط الصدئة والسلاسل اللزجة بالفطر ، ذلك العالم الذي يستيقظ تحت . وككل يوم ، كان هو النداء الرجولي الاخوي لحياة تحمل مذاق القوة ، فيحس الجميع هنا باغرائها او ندائها المباشر .

قالت اليان لروز بحزن :

– وانت ايضاً ، في الواقع ، مثلي .

قالت روز :

– لا . انني أحاول فقط ان أكون سعيدة والى أقصى حدّ ممكن .

قال باتريس من غير ان يتلفت :

- وليس الحب هو الوسيلة الوحيدة .

إنه يكنّ شغفاً كبيراً لإليان ، ويخشى ان يكون قد آلمها اللحظة . ولكنه يفهم روز في ارادتها أن تكون سعيدة .

قالت اليان :

- إنه مثل أعلى رديء .

- لا أدري ان كان مثلاً أعلى رديئاً ، ولكنه مثل أعلى سليم . وهـذا، أترين ...

ولم يتابع باتريس، وأغمضت روز عينيها قليلاً. وقفزت غولا الى ركبتيها . وبمداعبات طويلة على عظام جمجمتها ، مهدّت روز لهـذا الزواج الخفي الذي سترى فيه القطة المغمضة العينين نصف اغماضة وسترى المرأة الجامـدة بالنظرة نفسها عالماً متشابهاً كل منها يحـلم بين نداءات السفن الطويلة . وتركت روز يتصاعد اليها مواء غولا الملتفة في تجويف جسدها . وكانت الحرارة تضغـط على عينيها وتغرقها في صمت مسكون بخفقات دمها . ان الهررة تنام اياماً بكاملهـا وتتحابّ منذ بزوغ النجمة الاولى حتى الفجر. أن شهوتها تنهش ونومها ثقيـل . وهي تعلم أيضاً ان للجسد روحاً ليس للروح فيه اى نصيب .

قالت روز وهي تفتح عينيها :

- اجل ، أودّ أن أكون سعيدة . والى أقصى حدّ ممكن .

كان مرسو يفكر بلوسيان رينال . عندما كان قد قال منذ فترة قليلة ان النساء كن جميلات في الشوارع ، كان يود ان يقول خاصة ان امرأة كانت قـد بدت له جميلة . وكان قد التقى بها عند اصدقاء . ولأسبوع خلا، خرجا معـاً ، واذ لم يكن عندهما ما يفعلانه ، فقد تنزها على البولفار ، بمحاذاة المرفـأ ، في

صبيحة جميلة حارة . لقد امتنعت عن الكلام وحين صاحبها الى بيتها ، كان مرسو مندهشاً وهو يشد على يدها طويلاً ويبتسم لها . كانت طويلة ، ولم تكن تلبس قبعة ، وكانت منتعلة صندلاً مكشوفاً ومرتدية ثوباً من الكتان الأبيض. كانا قد مشيا على البولفار في وجه ريح خفيفة . وكانت تضع قدمها مبسوطة على البلاط الحار ، وتستند اليها لترفع نفسها قليلاً . في وجه الريح وفي هذه الحركة ، كان ثوبها يلتصق بها ويرسم بطنها المسطح المكوّر . وكانت تمثل بشعرها الاشقر الملقى الى خلف ، وأنفها الصغير المستقيم ، وانطلاق نهديها الرائع ، كانت تمثل وتؤكد نوعاً من الاتفاق السري كان يربطها بالأرض وينظم العالم حول حركاتها . وفيما كانت حقيبتها تتأرجح بيدها اليمنى المزينة بسوار من الفضة كان يطقطق على القفل ، وعندما كانت ترفع يدها اليسرى فوق رأسها لتتقي الشمس ، وطرف رجلها اليمنى على الأرض ما تزال ، ولكنها على وشك ان تغادرها ، عندها كان يخيل لمرسو انها كانت تشد حركاتها الى العالم .

وآنذاك أحس بالتوافق السري الذي كان يؤالف خطواته وخطوات لوسيان . كانا يمشيان معاً بتناسق من غير ان يبذل اي جهد لينسجم معها . صحيح ان هذا التوافق كان ميسراً بحذاء لوسيان المسطح . ولكن كان في دعساتها شيء مشترك بينهما في الطول والمرونة . وفي آن واحد ، لاحظ مرسو صمت لوسيان وهيئة وجهها المنقبضة . وفكر بانها كانت على الأرجح ناقصة الذكاء ، وسُرّ لذلك . هناك شيء إلهي في الجمال الخالي من الفكر ، وكان مرسو . يعرف أفضل من أي كائن آخر ، كيف يتأثر بذلك . كل ذلك جعله يطيل تلمسه لأصابع لوسيان ، ويقابلها كثيراً ، ويتنزه طويلاً معها بسيرة صامتة مانحين وجهيهما المسمرّين للشمس او للنجوم ، سابحين معاً ، مؤالفين حركاتهما واقدامهما من غير ان يتبادلا إلا حضور جسديهما . وقد تم ذلك كله حتى مساء

أمس إذ وجد مرسو معجزة مألوفة ومثيرة على شفتي لوسيان . إن ما كان يثيره حتى الآن كان طريقتها في التعلق بثيابه ، واتباعه متأبطة ذراعه ، وذلك الاستسلام وتلك الثقة اللذان كانا يمسان الرجل فيه . وكذلك صمتها الذي كان يضعها برمتها في حركتها الآنية ويكمل تشابهها مع القطط التي كانت تدين لها بالرزانة التي كانت تسبغها على جميع اعمالها .

وأمس ، بعد العشاء ، كان قد تنزه على المرفأ معها . وذات لحظة ، كانا قد توقفا على حاجز البولفار فالتصقت لوسيان بمرسو . وفي الليل احس تحت اصابعه بالوجنتين المثلجتين البارزتين ، والشفتين الدافئتين دفئاً كان الاصبع يغوص فيه . وإذ ذاك احس في نفسه ما يشبه صراخاً كبيراً متجرداً ملتهباً . وأمام الليل المثقل بالنجوم ، والمدينة ، كسماء مقلوبة مليئة بالأضواء البشرية تحت النفس الساخن العميق الذي كان يصعد من المرفأ نحو وجهه ، كان يراوده العطش لهذا النبع الدافيء ، وتعصف بــه ارادة لا تكبح لكي يلتقط على هاتين الشفتين النابضتين كل معنى هذا العالم اللاانساني الغافي ، كأنه صمت مسجون في فمها . وانحنى فكان ذلك كما لو أنه كان يضع شفتيه على عصفور. وأنّت لوسيان . وكان يعض شفتيها طوال دقائق ، وفمه لصق فمهـا ، كان يشرق هذا الدفء الذي كان يحمله كما لو انه كان يضم العالم بين ذراعيه . وكانت هي ، اثناء ذلك ، تتشبث به ، كأنها غريقة ، وتنبثق بدفعات من هذا الثقب الكبير العميق الذي كانت ملقاة فيه ، وتبعد شفتيها اللتين كانت تجذبها بعد ذلك ، لتسقط في المياه المجمدة السوداء التي كانت تحرقها كشعب من الآلهة .

... ولكن اليان كانت قد بدأت بالذهاب . وكان عصر طويل من الصمت والتفكير ينتظر مرسو في غرفته . وعنـد العشاء كانوا جميعهم صامتين . ولكنهم بتوافق موحّد انتقلوا جميعاً الى السطيحة . ان النهارات تنتهي دائماً

بان تلتحق بالنهارات . من الصباح على الجون ، المتلألىء بالغيوم والشمس ، حتى عذوبة المساء ، على الجون يبزغ النهار على البحر ويغيب خلف الروابي لأن السماء لا تكشف إلا طريقاً واحداً ينطلق من البحر حتى الروابي . ان العالم لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . فيغري ثم يسئم . ولكن يأتي دائماً وقت ينتصر فيه بقوة الترداد فيقبض ثمن مثابرته . وهكذا فان أيام « البيت امام العالم » المنسوجة من القماش المترف للضحكات والحركات البسيطة تنتهي على السطيحة أمام السماء المليئة بالنجوم . كانوا يتمددون على مقاعد طويلة ، وكانت كاترين جالسة على حائط السور .

وفي السماء ، يلتمع وجه الليل المعتم ملتهباً وسرّياً ، وتفرّ أضواء بعيدة جداً في المرفأ ويتباعد زئير القطارات . وتكبر النجوم ثم تتقلّص وتختفي ثم تولد من جديد ، موحّدة وجوها متقلبة فيما بينها . وفي الصمت، يسترد الليل كثافته ولحمه ، ومثقلاً بانزلاقات نجومه ، كان يترك في العيون الاعيب الأضواء التي تضع فيها الدموع . وكان كل واحد ، وهو يغوص في اعماق السماء ، يلقى في هذه النقطة القصوى التي يلتقي فيها كل شيء ، الفكرة الخفية الحنونة التي تشكل كل وحدة حياته .

ولم تستطع كاترين، التي خنقها الحب فجأة، إلا ان تتنهد . ومع ذلك فقد سأل مرسو الذي أحس بصوتها متغيراً :

— ألا تشعرين بالبرد ؟

قالت روز :

— لا . ثم ان ذلك جميل جداً . »

ونهضت كلير ، فوضعت يديها على الحائط ومدّت وجهها نحو السماء . وأمام كل ما في العالم من بدائي ورفيع ، مزجت بين حياتها وبين شهوتها الى الحياة ، وخلطت أملها مع حركة النجوم . وحين تنبهت فجأة توجهت قائلة لباتريس :

— في الأيام الطيبة ، حين تمنح الحياة الثقة ، فهذا يجبرها على ان تردّ بالمثل.

قال باتريس من غير أن ينظر اليها :

— نعم .

وانخطفت نجمة ، وخلفها ، انتشر ضوء منارة بعيدة في الليل الذي ازداد الآن حلكة . وتسلق رجال الطريق صامتين . وكانوا يُسمعون وهم يراوحون ويتنفسون بشدة . وبعد قليل فاح عبير ورود .

إن العالم لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . وفي هـــذه الحقيقة الصابرة التي تنتقل من نجمة الى نجمة ، تترسخ حرية تُحلّنا من ذواتنا ومن الآخرين ، شبيهة بتلك الحقيقة الصابرة الأخرى التي تنتقل من الموت الى الموت . آنذاك كان باتريس وكاترين وروز وكلير يعون السعادة التي تولد من استسلامهم للعالم.

ولئن كان هذا الليل كوجه مصيرهم ، فانهم معجبون بأن يكون حسياً وسرّياً في وقت واحد ، وان تختلط على وجهه الدموع والشمس . ويعرف قلبهم المـــليء بالألم والفرح أن يستمع الى هذا الدرس المزدوج الذي يقود نحو الموت السعيد .

الوقت متأخر الآن ، فقد بدأ منتصف الليل . وعلى جبين هذا الليل الذي يشبه راحة العالم وفكره ، كان تضخم أصمّ وجلبة نجوم ينبئان باليقظة القادمة. ومن السماء ، المفعمة بالكواكب ، ينحدر نور راجف. وينظر باتريس الى صديقاته : كاترين مقرفصة على الحائط ، رأسها مقلوب الى الوراء ، وروز ، قابعـــة في الكرسي الطويل ، يداها مبسوطتان على غولا ؛ وكلير واقفـــة متصلبة إزاء الحائط تعلو لطخة بيضاء جبينها المقبب . كائنات شابة ، قابلة للسعادة يتبادلون شبابهم ويحتفظون باسرارهم . واقترب من كاترين ، ونظر من فوق كتفهـــا المصنوعة من اللحم والشمس في كرويتها السماوية . واقتربت روز من الحائـط فاصبحوا هم الأربعة أمام «العالم» . كان ذلك كما لو ان الندى الليلي الذي غـــدا

فجأة أكثر نضارة كان يغسل عن جباههم أمارات وحدتهم ويحرّرهم من ذواتهم ، وبهذا التعميد الراجف الخاطف كان يعيدهم الى العالم ، وفي تلك الساعـــة التي يفيض فيها الليل بالنجوم ، تستمّر حركاتهم على وجه السماء الكبير الاصم .

ورفع باتريس ذراعه نحو الليل وجرف في انطلاقته باقات من النجوم، وماء السماء الذي خفقته ذراعه ومدينة الجزائر تحت قدميه ، وحولهم ما يشبه معطفاً قاتماً متلألئاً بالجواهر والاصداف .

الفصل الرابع

في الصباح الباكر ، كانت سيارة مرسو تجري على طريق الساحل بمصباحيها المنخفضي الضوء. وحين خرج من مدينة الجزائر ، كان قد أدرك وتجاوز عربات بائعي اللبن ، وكانت رائحة الخيول الممزوجة من العرق الحار والزريبة ، قد جعلته اكثر تذوقاً لنضارة الصباح . كان الوقت ما يزال ليلاً ، وكانت نجمة اخيرة تذوب ببطء في السماء ، وعلى الطريق الملتمع في الظلمة ، كان يلحظ فقط صوت وحش المحرك السعيد ، واحياناً على بعد طفيف ، خبب حصان وضجيج عربة مليئة بالصفائح، الى ان استطاع ان يدرك ، على الخلفية السوداء للطريق، بريق الحديد اللماع المربّع على اقدام الحصان . ثم كان كل شيء يضمحل في ضجيج السرعة . كان الآن يسبح بسرعة اكبر ، وكان الليل يميل بسرعة نحو النهار .

وفي اعماق الليل المتراكم بين روابي مدينة الجزائر ، كانت السيارة تخرج على طريق سالكة تشرف على البحر حيث كان الصباح يكتمل . واطلق مرسو لسيارته العنان . كانت العجلات تضاعف على الطريق الرطب بالندى اصواتها الصغيرة الشبيهة بأصوات محجم . وعند كل منعطف ، كانت ضربة مكبح تجعل العجلات تزأر على نحو حادّ ، وفي الخط المستقيم كان خرير الاقلاع الجديد يطغى لحظة على اصوات البحر الصغيرة التي كانت تصعد من الشواطيء ، على مستوى ادنى . إن الطائرة وحدها تتيح وحدة يتحسسها الانسان اكثر مما يتحسس الوحدة التي يكتشفها في السيارة. وقد كان مرسو ، وهو حاضر أمام نفسه حضوراً تاماً ، راض رضى واعياً عن دقة حركاته ، يستطيع في الوقت

نفسه ان يعود الى ذاته وإلى ما كان يشغله . كان النهار الآن مشرعاً عند طرف الطريق . وكانت الشمس ترتفع على البحر ومعها كانت الحقول ذات الحواشي ، المقفرة ، للحظة خلت ، تستيقظ مليئة بالعصافير والحشرات ذات الطيران الأحمر. احياناً كان فلاح يجتاز احدها فلا يحفظ مرسو ، وهو مدفوع بالسرعة، إلا صورة طيف يحمل كيساً ، ويطأ بكل ثقل خطواته على الأرض الدهنية النارّة . وكانت السيارة تعيده بانتظام الى المنحدرات التي تسيطر على البحر . وكانت هذه المنحدرات تتضخم ، وكان طيفها ، الذى لم يكن منذ لحظات يتميز إلا كظل صيني تجاه النهار ، يقترب بسرعة ويتضخم بدقائقه ويقـدم لمرسو جنباته المكشوفة فجأة ، مليئة بشجرات الزيتون والصنوبر والبيوت الصغيرة المطينة . ثم كان ينتفخ بالمدّ ويصعد نحو مرسو ، كقربان مليء بالملح والحمرة والنعاس ، وكانت السيارة آنذاك تزمر على الطريق وتتجه من جديد نحو منحدرات اخرى ونحو البحر ذاته . لشهر خلا ، كان مرسو قد أعلن رحيله عن « البيت أمام العالم » . كان يريد ان يسافر اولاً ثم يستقر في ضواحي مدينة الجزائر . وبعد بضعة أسابيع عاد ، متأكداً من ان السفر كان يمثل له بعد الآن حياة غريبة : كان الاغتراب يبدو له فقط سعادة انسان قلق ، كما انه كان يحس في ذاته تعباً غامضاً. كان متعجلاً ليحقق المشروع الذي سبق ان وضعه لشراء بيت صغير بين البحر والجبل ، في الشنوة، على بعـد كيلومترات من خرائب تيبازا. ولدى وصوله الى مدينة الجزائر ، كان قـد صمم الديكور الخارجي لحياته ، فاشترى كمية هامة من المستحضرات الصيدلية الالمانية وعيّن موظفاً كان يدفع له للاشراف على العمل ، مبرّراً بهذه الطريقة غيابه عن مدينة الجزائر والحياة المستقلة التي كان يحياها . وكان العمل يسير في ما تبقى بطريقة ما، وكان يتكفّل بالعجز الاتفاقي ، مضيفاً بلا تأنيب ضمير ، هذه الضريبة الى حريته العميقة . كان حسبه بالفعل ان يقدم للعالم وجهاً يستطيع ان يفهمه ، ويضطلع الكسل والجبن بالباقي . إن الاستقلال يُكتسب

بنعض كلمات رخيصة من كلام الاعتراف. ثم اهتم مرسو فيا بعد بمصير لوسيان.

لم يكن لها اهل ، وكانت تعيش وحدها . وكانت سكرتيرة في متجر للفحم ، وكانت تقتات بالفاكهة وتقوم بالرياضة البدنية . وقد اعارها مرسو كتباً فأعادتها اليه من غير ان تقول شيئاً . وكانت تجيب على اسئلته . بقولها : « نعم نعم . انها جيدة » . او : « هذا حزين بعض الشيء » . وفي اليوم الذي قرر فيه أن يغادر مدينة الجزائر ، عرض عليها ان تعيش معه ، على ان تقيم في مدينة الجزائر من غير ان تعمل ، وان توافيه عندما يكون بحاجة اليها . قال ذلك باقتناع كاف لكي لا ترى لوسيان في الأمر اي شيء "مذل" ، والحق انه لم يكن فيه اي شيء مذل . وغالباً ما كانت لوسيان تلحظ بجسدها ما كان فكرها يعجز عن فهمه ، فقبلت . وأضاف مرسو:

– اذا كنت حريصة على ان تتزوجي ، فباستطاعتي ان أعدك بالزواج منك . ولكن ذلك لا يبدو لي مفيداً .

قالت لوسيان :

– كما تشاء .

بعد اسبوع ، كان يتزوجها ويتهيأ للذهاب . وفي أثناء ذلك اشترت لوسيان لنفسها قارباً برتقالي اللون لتذهب الى البحر الأزرق .

وتجنب مرسو ، بضربة مقود ، "دجاجة" صباحية . كان يتذكر حديثاً كان قد أجراه مع كاترين . وكان قد غادر «البيت أمام العالم» عشية يوم السفر ليمضي ليلة وحيداً في الفندق .

كان ذلك في أول العصر ، ولما كانت الدنيا قد امطرت في الصباح ، فان الجون كان بأكمله كزجاج مغسول ، والسماء كغسيل رطب . وبالمواجهة تماماً ، كان الرأس الذي كان ينهي دائرة الجون يرتسم بنقاء عجيب ، وكان

يتمدد مذهباً شعاع الشمس ، أشبه بجية صيف كبيرة . وكان باتريس قد انتهى من استعداده للسفر ، وكان الآن ، وذراعاه على قائمة واجهة النافذة ، ينظر بنهم إلى هذه الولادة الجديدة للعالم .

— لا أفهم لماذا تذهب ، ان كنت سعيداً هنا .

هذا ما كانت كاترين قد قالته له .

— انني أخشى أن أُحبّ هنا ، يا صغيرتي كاترين ، وهذا سيمنعني من ان أكون سعيداً .

كانت كاترين ملتفّة على نفسها على الأريكة ، منخفضة الرأس بعض الشيء ، وكانت تنظر باتريس بنظرها الجميل الخالي من العمق . وقد قال من غير أن يلتفت :

— كثير من الرجال يعقّدون وجودهم ويخترعون لأنفسهم مصائر . أما أنا ، فالأمر عندي بسيط ، انظري .

كان يتكلم بمواجهة العالم ، وكانت كاترين تحس نفسها منسية . كانت تنظر الى أصابع باتريس الطويلة والمتدلية عند طرف ساعده المطوي على قائمة النافذة ، وإلى طريقته في إسناد جسده على جانب واحد ، وإلى نظره التائه الذي كانت تحزره من دون أن تلحظه .

قالت :

— ما أودّه ...

ولكنها سكتت ، ونظرت إلى باتريس ، كانت أشرعة صغيرة قد بدأت في عبور البحر منتهزة فرصة الهدوء . كانت تبلغ المضيق فتملأه بخفقات الأجنحة ثم ، فجأة تحول جريها نحو عرض البحر ، يرافقها نخر من الهواء والماء كان يتفتح بارتعاشات طويلة مزبدة . ومن مكانها ، وبقدر ما كانت تقترب الاشرعة من البحر ، كانت كاترين تراها ترتفع حول باتريس كرفيف طيور بيضاء . وبدا

أنه يحس صمتها ونظرها ، فالتفت ، وأمسك بيديها وضمها إليه .

— لا تتراجعي ، أبداً ، يا كاترين. انك تملكين الكثير من الأشياء في نفسك ، وانبلها جميعاً حس السعادة : لا تنتظري الحيـاة فقط من رجل بسبب ذلك . تخطيء الكثيرات من النساء . ولكن انتظريها من ذاتك .

قالت كاترين بهدوء وهي تأخذ كتف باتريس :

— إنني لا اشتكي ، يا مرسو . هناك شيء واحد مهم الآن . اعتنِ بنفسك .

وأحس إذ ذاك كم كان يقينها يستند على قليل من الأشياء ، وكان قلبـه جافاً بطريقة غريبة .

— كان عليك ان لا تقولي ذلك الآن .

وتنـــاول حقيبته وهبط في بادىء الأمر السلم الواقف ثم سلك الطريق المبتدىء من شجرات الزيتون حتى شجرات الزيتون. ولم يكن شيء ينتظره بعد سوى الشنوة ، غابة في الخرائب والأبسنت ، وحب بلا أمل ولا يأس ترافقه ذكرى حياة من الخل والورود . والتفت فوق ، كانت كاترين تنظر اليه يرحل ، بلا حراك .

وبعد أقل من ساعتين بقليل وصل مرسو مقابل شنوة . في هـــذه اللحظة كانت اضواء الليل البنفسجية الأخيرة ما تزال تنسحب على منحدراتها التي كانت تغطس في البحر بينما كانت للقمة تشع بالأضواء الحمراء والصفراء . كان هناك ما يشبه اندفاعاً قوياً وكثيفاً للأرض ينطلق من منحدرات السهل التي كانت ترتسم جانباً عند الأفق ، لتنتهي عند هذا الظهر الضخم للحيوان العاضل الذي يغطس في البحر بقامته كلها .

وكان البيت الذي اشتراه مرسو يرتفع عند آخر المنحدرات على ارتفـاع ما يقرب من مئة متر عن البحر الذي كانت قد ذهبته الحرارة . لم يكن يتكون إلا من طابق واحد فوق الطابق الأرضي ، وفي هذا الطابق لم يكن ثمة سوى غرفة

واحدة مع توابعها . ولكن هذه الغرفة كانت واسعة ، كانت تنفتح على الحديقة الأمامية ،ثم على البحر يحون رائع مطوّل بسطيحة وقد صعد مرسو اليه بسرعة. كان البحر قد بدأ يرسل بخاره ، وفي آن واحد أخذت زرقته تزداد دكنة ، بينما كانت حمرة بلاطات السطيحة الحارة تكتسب إشراقته ولمعانه . وكان الدرابزون الملتّطيتيح لأولى أزهار شجرة ورد رائعة معرّشة أن تتسلل خلاله. كانت الورود بيضاء،أما التي كانت مفتحة،متفرقة على البحر،فقد كان في صلابة لحمها ما هو مُشبِع وخصب . ومن غرف الطابق الأسفل ، كانت احداها تطل على أول منحدرات الشنوة ، المملوءة بالأشجار المثمرة ، بينما تطل الغرفتان الأخريان على الحديقة ، وعلى البحر . وفي الحديقة ، كانت شجرتا صنوبر تقذفان في السماء جذعيها اللامتناسقين اللذين تغطي طرفيها فقطفروة مصفرةوخضراء، ومن البيت لم يكن المرء يستطيع ان يرى إلا الفضاء المسجون بين هاتين الشجرتين وانحناءة البحر بين الجذعين . في هذه اللحظة على الأقل ، كان بخار خفيف يمر في عرض البحر ، وقد نظر مرسو اليه أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها من صنوبرة إلى أخرى .

هنا كان سيعيش. وكان جمال هذه الأماكن يؤثر بلا شك على قلبه . لأجلها أيضاً كان قد اشترى هذا البيت . ولكن الراحة التي كان قد أمل أن يجدها هنا كانت تخيفه الآن . وهذه الوحدة التي كان قد بحث عنها بهذا القدر من الوضوح كانت تبدو له أشد إقلاقاً ، لا سيما وأنه الآن كان يعرف إطارها . لم تكن القرية بعيدة بل كانت على بعد بضع مئات من الامتار . وخرج . كان درب صغير يهبط من الطريق نحو البحر . وإذ دلف اليه ، لاحظ لأول مرة انه كان بالامكان رؤية رأس تبازا الصغير ، من الناحية الأخرى للبحر . على طرف هذا الرأس ، كانت أعمدة المعبد المذهبة تتقاطع ، ومن حولها الخرائب المندثرة بين اشجار الأبسنت التي كانت تشكل ، على مسافة ما، فروة رمادية وصوفية. وفكر مرسو بأن الريح ، في أمسيات حزيران ، لا بد من ان تحمل إلى شنوة ،

عبر البحر ، العطر الذي كانت تفيض به أشجار الأبسنت المفعمة بالشمس .

كان عليه ان يجهّز مسكنه وينسّقه . وقد مضت الأيام الأولى بسرعة : طلى الجدران بالكلس، واشترى بسطاً من مدينة الجزائر، وأعاد التمديد الكهربائي. وفي هـــذا العمل المتقطع في النهار بالوجبات التي كان يتناولها في مطعم الضيعة وبحمامات البحر ، كان ينسى لماذا أتى إلى هنا ، وكان يتوزع في تعب جسده ، مجوف الكليتين ، متصلب الساقــين ، مهموماً من نقص الدهان أو من التركيب الفاسد لمفصّلة في الممر . وكان ينام في الفندق ويتعرف شيئاً فشيئاً على الضيعة : الصبيان الذين كانوا يأتون بعد ظهر الأحد ليلعبوا بالبليــار الروسي والبنغ — بونـغ . (كانوا يحتلون الألعاب بعد الظهر كله ، ولم يكونوا يتناولون إلا طلبـاً واحداً، مما كان يثير غيظ صاحب الدكان)؛ والبنات اللواتي كن يتنزهن مساء على الطريق التي كانت تشرف على البحر (كن يتماسكن بالاذرع وكانت اصواتهن تغني قليلاً على المقاطع الاخيرة للكلمات) ؛ و «بيريز» الصياد الذي كان يزود الفندق بالسمك ولم تكن له إلا ذراع واحدة ، وهنـــاك أيضاً التقى بطبيب القرية ، برنار . ولكن في اليوم الذي تم فيه ترتيب كل شيء ، نقـــل مرسو إلى المنزل حوائجه ، ورجع بعض الشيء إلى نفسه . وكان ذلك في المساء . كان في غرفة الطابق الأول ، وخلف النافذة كان عالمان يتنازعان الفضاء بين الصنوبرتــين ، وكانت النجوم في احدهما ، المائل الى الشفافية ، تتكاثر . وفي الآخر ، الأكثر كثافة وسواداً ، كان خفقان ماء خفيّة يبشّر بالبحر .

حتى ذلك الحين كان قد عاش في حالة الاستيداع ، ملتقياً بالعمال الذين كانوا يساعدونه أو مثرثراً مع صاحب المقهى، ولكن في ذلك المساء وعى انه لم يكن ثمة أحد يلقاه ، لا غداً ولا أبداً ، وانه كان وجهاً لوجه مع الوحدة التي طالما تمناها. ومنذ اللحظة التي كان عليه ان يلقى فيها احداً ، بدا له اليوم التالي قريباً بشكل مريع . بيد أنه أقنع نفسه بأن هذا هو ما سبق له ان اراده : هو امام نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية . وصمم على ان يظل يدخن ويفكر حتى ساعة

متأخرة في الليل . ولكنه حوالي الساعة العاشرة أخذه النعاس فنام . في اليوم التالي استيقظ متأخراً جداً ، عند العاشرة تقريباً ، فهيأ فطوره وتناوله قبل ان يأخذ زينته . كان يحس نفسه تعباً بعض الشيء. ولم يكن قد حلق ذقنه وكان شعره مبعثراً . ومع ذلك ، فانه ، بعد أن أكل ، وبدلاً من ان يدلف إلى الحمام، تاه من غرفة إلى أخرى ، مقلباً أوراق مجلة ، وأحس أخيراً انه سعيد إذ وجد عاكساً للتيار الكهربائي متدلياً من الحائط فباشر العمل . وطُرق الباب . وكان هو صبي الفندق الصغير الذي كان يحضر له غداءه كما سبق ان اتفق معه البارحة. وكما كان ، وبكسل ، جلس الى الطاولة ، وأكل من غير شهية قبل ان تبرد الصحون ، وأخذ يدخن ، متمدداً على أريكة غرفة الطابق الاسفل . عندما استيقظ ، غاضباً لكونه قد نام ، كانت الساعة الرابعة. وإذ ذاك هندم نفسه ، وحلق بعناية ، ثم ارتدى ثيابه وكتب رسالتين ، احداهما للوسيان والاخرى للتلميذات الثلاث . كان الوقت إذ ذاك متأخراً جداً ، وكان الليل يهبط ، ومع ذلك ، فقد ذهب حتى القرية ليلقي رسائله في البريد ، وعاد من غير أن يكون قد التقى أحداً . وصعد إلى غرفته ، ثم خرج الى السطيحة . كان الليل والبحر يتحاوران على الساحل الرملي وفي الخرائب .

وكان هو يفكر . وكانت ذكرى هذا اليوم الضائع تسممه . وذلك المساء، على الأقل ، كان يريد ان يشتغل ، ان يعمل شيئاً ما ، ان يقرأ أو يخرج ليمشي في الليل . وصرّ حاجز الحديقة المشبك : هذا عشاؤه يصل . كان جائعاً فأكل بشهية ، وأحس نفسه عاجزاً عن الخروج . وقرر أن يقرأ طويلاً في السرير . ولكن عينيه أغلقتا عند الصفحات الأولى ، وفي اليوم التالي استيقظ متأخراً .

في الأيام التالية ، حاول مرسو ان يقاوم هذا الاجتياح . وبقدر ما كانت الأيام تمر ، مليئة كلها بصرير الحاجز المشبك واللفائف التي لا تعد ، كان القلق يأخذ به وهو يقدر التفاوت بين الحركة التي كانت قد قادته إلى هـــذه الحياة

وهذه الحياة نفسها . وذات مساء ، كتب للوسيان يدعوها قاطعاً بهذه الطريقة الوحدة التي طالما كان ينتظرها . عندما ذهبت الرسالة ، كان خجل قد افترسه ، ولكن عندما وصلت لوسيان ، ذاب هذا الخجل في نوع من الفرح الأبله المتعجل اجتاحه وهو يرى كائناً مألوفاً ، ويرى الحياة المريحة التي كان حضوره ينطوي عليها . وأخذ يهتم بها ، ويبدي حفاوة كبيرة ، وكانت لوسيان تنظر اليه بشيء من الدهشة ، ولكنها كانت دائماً منهمكة بفساتينها من الكتان الأبيض المكويّة جيداً .

وبعدها خرج الى القرية ، ولكن مع لوسيان . واستردّ تواطؤه مع العالم ، ولكن وهو يضع يده على كتف لوسيان . وحين لاذ بالانسان فيه ، كان يهرب من خوفه الخفي . ومع ذلك ، فبعد يومين كانت لوسيان تضجره. وقد اختارت هي هذه اللحظة بالذات لتطلب اليه ان تعيش بالقرب منه. كانا يتناولان العشاء، وكان مرسو قد رفض بوضوح من غير ان يرفع عينيه عن صحنه .

وبعد لحظة صمت ، كانت لوسيان قد أضافت بصوت محايد :

— انت لا تحبني .

فرفع مرسو رأسه . كانت عيناها مليئتين بالدموع . ورق لها :

— ولكنني لم أقل ذلك أبداً ، يا صغيرتي .

قالت لوسيان :

— هذا صحيح ، وهذا هو السبب .

ونهض مرسو ، فسار نحو النافذة . بين شجرتي الصنوبر ، كانت النجوم تتكاثر في الليل . ربما لم يسبق لباتريس قط أن أحسّ في قلبه ، وفي آن واحد ، بقلقه وبمثل هذا التقزز من الأيام التي انقضت . وقال :

ـ انت جميلة يا لوسيان . إنني لا أرى أبعد من ذلك . ولا اطلب منك اكثر من هذا. ان ذلك يكفينا نحن الاثنين .

قالت لوسيان : ـ أعرف ذلك .

وكانت توليه ظهرها ، وكانت تحكّ الخوان ، بحد سكينها . وقد أقبل عليها وأمسكها من رقبتها :

ـ صدّقيني، ليس هناك ألم كبير ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة. كلّ شيء ينسى ، حتى الحب الكبير . هنا يكمن كل ما في الحياة من حزين ومثير في وقت معاً . هناك فقط طريقة ما في النظر الى الاشياء ، وهي تنبعث من وقت الى آخر . من أجل ذلك يستحسن ، بالرغم من كل شيء ، ان يكون المرء قد عرف حباً كبيراً ، او عاطفة شقيّة في حياته . هذا يخلق على الأقل ذريعة لليأس الذي لا مبرر له والذي نحن تحته رازحون .

وبعد فترة ، فكر مرسو وأضاف :

ـ لا أدري ان كنت تفهمينني .

قالت لوسيان :

ـ اعتقد انني افهم .

وأدارت فجأة رأسها نحوه :

ـ انت لست سعيداً .

قال مرسو بعنف :

ـ سأكون سعيداً . يجب ان أكونه . بفضل الليل وهذا البحر وهذه الرقبة تحت أصابعي .

وكان قد اتجه نحو النافذة ، وشدّ يده على رقبة لوسيان . وكانت تلتزم

الصمت . ثم قالت من غير ان تنظر اليه :

– إنك على الأقل ، تكنّ لي بعض الصداقة ؟

ركع مرسو أمامها وهو يعضّ كتفها :

– صداقة ، نعم ، كما أكنّ صداقة لليل . انك فرحـــة عينيّ ، وانت لا تعلمين اي مكان يمكن ان تحتله هذه الفرحة في قلبي .

وذهبت في اليوم التالي . وفي اليوم الذي تلاه ، كان مرسو ، وقد عجز عن ان يأتلف مع نفسه ، يصل الى مدينة الجزائر بالسيارة . وقـــد ذهب اولاً الى « البيت أمام العالم » . ووعدته صديقاته بان يذهبن لرؤيتـــه في اواخر الشهر نفسه . واراد اذ ذاك ان يعود الى حيّه .

كان بيته قد أجر لصاحب مقهى . واستخبر عن البراميلي فلم يستطع أحد افادته . كانوا يعتقدون انه ربما كان قد ذهب الى باريس بحثاً عن عمل . وتنزّه مرسو . وفي المطعم ، كان سيليست قد شاخ – قليلاً . وكان رينه مـــا يزال هناك،مع سلّه وهيئته الرزينة . وقد سعدوا جميعاً بان يروا مرسو من جديد ، وكان هو متأثراً بهذا اللقاء .

قال له سيليست :

– أوه ، يا مرسو ، انت لم تتغير !

قال مرسو : نعم .

كان يعجبه هذا الاصرار العجيب على ان يفرض الناس على اصدقائهم،بالرغم من كونهم مطلعين اطلاعاً كبيراً على ما يتغير في ذواتهم ، الصورة التي كوّنوها عنهم مرة والى الابد .

وبالنسبة له ، فقد كانوا يحكمون عليه وفقاً لما سبق ان كانـه . وككلب

لا يغير من طباعه ، كذلك فان الناس هم كلاب في نظر الانسان . وبالقدر نفسه الذي كان فيه سيليست ورينه والآخرون قد عرفوه ، فقد كان يصبح بالنسبة لهم غريباً ومنغلقاً ككوكب غير مأهول . ومع ذلك ، فقد تركهم بصداقة . وبينما هو خارج من المطعم ، التقى بمارت . وإذ رآها ، وعى انه كان قد نسيها تقريباً وانه كان في الوقت نفسه يأمل ان يلقاها . لقد كان لها دائماً وجه الإلاهة المرسومة . وقد اشتهاها خفية ولكن من غير اقتناع . وسارا معاً .

قالت له :

– أوه ، يا باتريس ، كم انا مسرورة . ماذا أصبحت ؟

– لا شيء . كما ترين . انني اسكن القرية .

– هذا رائع ! لقد حلمت انا دائماً بذلك

وبعد صمت ، قالت :

– أتعلم ؟ إنني غير حاقدة عليك .

قال مرسو وهو يضحك :

– نعم . لقد تعزّيت .

وإذ ذاك اتخذت مارت لهجة لم يكن يعهدها فيها قط :

– لا تكن خبيثاً ، أتريد ذلك ؟ كنت اعرف جيداً ان هذا سينتهي هكذا يوماً ما . لقد كنت شخصاً عجيباً ، وانا لم اكن سوى فتاة صغيرة كما كنت تقول . وعندما حصل الأمر غضبت طبعاً . انت تفهم . ولكنني انتهيت الى ان أقول لنفسي انك كنت تعيساً . وهذا غريب . انني لا أعرف جيداً ان اعبر عن هذا ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي أدرك فيها ان ما كان حدث بيننا قد جعلني حزينة وسعيدة في آن واحد .

نظر اليها مرسو ، مندهشا . كان يفكر فجأة بأن مارت كانت دائمـاً على علاقة طيبة جداً معه . كانت قد تقبلته على علاّته ، وكانت قد انتزعته من كثير من الوحدة . ولقد كان غير منصف . ففي الوقت نفسه الذي كان فيه خياله ، وزهوه قد منحاها من القيمة اكثر مما ينبغي ، فان غروره لم يمنحها من هـذه القيمة ما فيه الكفاية . كان يحس بأية مفارقة قاسية نُنخدع دائماً مرتين بالاشخاص الذين نحبهم ، لصالحهم اولاً ولغير صالحهم فيما بعد . وهو يدرك اليوم ان مارت قد كانت طبيعية معه – وانها قد كانت ما كانته ، وبهذه الصفة كان مديناً لهـا بالكثير . كانت الدنيا تقطر رذاذاً ما يكفي بالضبط لمضاعفـة أضواء الشارع وتبديدها . وعبر نقط الأنوار والمطر ، كان يرى وجه مارت الجادّ فجأة فيحس نفسه مأخوذاً بعرفان مضطرم لم يكن يتوصّل للتعبير عن نفسه ، عرفان كان بامكانه ، في أوقات اخرى ، ان يعتبره نوعاً من الحب . ولكنه لم يعرف ان يجد إلا كلمات مسكينة ، فقد قال لها :

– انت تعلمين ، انني احبك كثيراً ! والآن ايضاً ، لو كنت استطيـع شيئا . .

ابتسمت له ، وقالت :

– لا . انني شابة : وإذن فانني لا أحرم نفسي .

وأومأ موافقا . منه اليها ، أيّ بُعد كان بينهما واي تفاهم خفيّ ، في آن واحد . . وتركها امام بيتها . وكانت قد فتحت مظلتها . قالت :

– آمل ان نلتقي .

قال مرسو : « نعم » .

وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة . قال مرسو :

– أوه . ان لك الآن وجه الفتاة الصغيرة .

كانت قد انسحبت تحت الباب واغلقت مظلّتها . ومدّ لها باتريس يده وابتسم بدوره :

– الى اللقاء ، يا تجلّ .

وشدت عليها بسرعة ، وفجأة قبّلته من وجنتيه ، وصعدت السلم وهي تركض . وظل مرسو تحت المطر ، وكان ما يزال يحس على وجنتيه انف مارت البارد وشفتيها الحارّتين .

وتلك القبلة الفجائية المتجردة ، كان لها التقاء كله الذي كان لقبلة بغي فيينا الصغيرة ذات النمش .

ومع ذلك ، فقد ذهب لملاقاة لوسيان ، ونام عندها . وفي اليوم التالي طلب منها ان يسيرا على البولفار . كانت الساعة تقارب الظهر عندما هبطا . وكانت اصداف وردية تجف في الشمس كثمار مقسمة الى حصص . وهبط طيران مزدوج للحمام واظلال الحمام نحو المرافيء ليصعد في الحال بانحناءة بطيئة . وكانت الشمس المتألقة تدفيء بعذوبة . وكان مرسو ينظر الى ناقل البريد الاحمر والاسود يخرج على مهل من المضيق البحري فيزيد من سرعته ثم ينعطف نحو حاجز النور الذي كان يزيد عند التقاء السماء والبحر . ان في كل رحيل ، بالنسبة للانسان الذي يشاهد رحيلاً ، عذوبة مرّة . قالت لوسيان :

– انهم محظوظون .

فقال باتريس « نعم » وكان يفكر « لا »،او أنه كان على الاقل لا يحسدهم على هذا الحظ . صحيح ان الاستئنافات، والرحلات، والحيوات الجديدة كانت بالنسبة اليه ايضا،تحتفظبجاذبيتها،ولكنه كانيعلم ان السعادة لا تتعلق بها الا في ذهن الكسالى والعاجزين . كانت السعادة تفترض اختياراً ، وداخل هذا الاختيار إرادة مدّبرة وواعية . كان يسمع صوت زغرو : « ليس بارادة الرفض ، ولكن بارادة السعادة » .

كانت ذراعه تحيط لوسيان ، وفي يده كان يستريح نهد المرأة الدافيء اللدن .

في المساء نفسه ، وفي السيارة التي كانت تعيده الى شنوة ، كان مرسو يحسّ أمام انتفاخات المياه والروابي المنبعثة فجأة ، بصمت كبير في ذاته . وكان في تصنعه بعض الاستئنافات ، وفي وعيه لحياته الماضية ، قد حدد في ذاته ما كان يريد وما كان لا يريد أن يكونه . وهذه الأيام من التشتت التي كانت قد أخجلته كان يعتبرها خطرة ، ولكن ضرورية ، وكان من الممكن أن يغرق فيها ويفوّت إذ ذاك تبريره الوحيد . ولكن كان عليه أيضاً أن يتلاءم مع كل شيء .

وبين ضربتي كابح ،كان مرسو متشبعاً بهذه الحقيقة ،التي تُخجل والتي لا تقدّر بثمن في الوقت نفسه ، حقيقة أن السعادة الفريدة التي يبحث عنها كانت تجد شروطها في اليقظات الصباحية ، والحمامات المنتظمة ، وسلامة الصحة الواعية . كان ينطلق مسرعاً جداً ، مصمماً على ان يستفيد من انطلاقته ليستقر في حياة لن تتطلب منه فيما بعد أية جهود ، ليؤالف تنفسه مع الايقاع العميق للزمن والحياة .

وفي صباح اليوم التالي نهض باكراً ونزل نحو البحر . كان البحر إذ ذاك في تمام إشراقه ، وكان الصبح محملاً باختلاجات أجنحة وزقزقة عصافير . ولكن الشمس كانت تلامس فقط انحناءة الافق ، وعندما دخل مرسو في الماء الذي كان بعدُ بلا لمعان ، خيل اليه أنه يسبح في ليل حائر ، حتى إذا ارتفعت الشمس ، غطّس ذراعيه في مساكب من الذهب الاحمر المثلج . وفي هذه اللحظة عاد ، ودخل بيته ، وأحس جسده خفيفاً ومستعداً ان يتلقى كل شيء. وفي الصباحات التي تلت ، كان ينزل قبيل بزوغ الشمس .

وكانت هذه الحركة الأولى تتحكم في باقي نهاره . والحق ان هذه الاستحمامات كانت تتعبه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه ، بما كانت تخلّفه له من ضعف ومن طاقة ، تمنح يومه كله مذاقاً من الاستسلام والتعب السعيد . ومع ذلك ،

فقد كانت نهاراته تبدو له طويلة ما تزال . لم يكن قد حل وقته بعد من هيكل عادات كان يتخذها كصوى ومعالم . لم يكن لديه ما يفعله ، وكان وقتــه يأخذ بالتالي كل امتداده . كانت كل دقيقة تجد قيمتها الأعجوبية ، ولكنــه لم يكن يتعرّف عليها بعد بهذه الصفة . وكما كانت الأيام في السفر ، تبدو لا نهاية لهــا ، بينما كان انقضاء الفترة في المكتب بين الأثنين والأثنين يتم بلمحة عين ، كذلك فانه ، وقد حُرم من ركائزه ، كان يحاول ان يستعيدها في حياة لم يكن فيها مع ذلك ما يفعله . كان أحياناً يمسك ساعة وينظر إلى العقرب وهو يتنقل من رقم إلى آخر ، فيذهله ان تبدو له خمس دقائق وقتاً لا ينتهي . ومما لا شك فيه ان هذه الساعة قد فتحت له الطريق الشاق المعذب الذي يقــود إلى الفن الأعظم : فنّ عدم القيام بشيء . وتعلم ان يتنزه . وعند العصر ، كان أحياناً يسير بمحاذاة الشاطيء حتى الخرائب على الطرف الآخر ، وكان يرقد عندها في الأبسنت ويده على حرارة حجر ، وكان يفتح عينيه وقلبــه على عظمة هـــذه السماء المخنوقة بالحرارة ، تلك العظمة التي لم تكن لتحتمل . وكان يؤالف نبضات دمه مــع نبضات الشمس العنيفة عند الساعة الثانية ، وإذ يكون غاطساً بــين الروائح المتوحشة وموسيقى الحشرات الناعسة ، فانه ينظر إلى السماء تنتقل من الأبيض إلى الأزرق الصافي ، لتهوّي فيما بعـــد حتى اللون الأخضر وتفرغ عذوبتهــا وحنوها على الخرائب التي ما تزال حارة . إذ ذاك كان يعود باكراً وينام . وفي هذا السباق من شمس الى شمس أخرى ، كانت أيامه تنتظم وفق ايقاع اصبــح بطؤه وغرابته ضروريين بالنسبة له ضرورة مكتبه ومطعمه ونومه في الماضي . وفي الحالتين كلتيهما كان لا واعياً تقريباً . اما الآن فقد كان على الاقـــل ، في ساعات صفائه ، يحس ّ ان الوقت كان ملكه ، وانه في هذه اللحظة القصيرة التي تمتد ما بين البحر الأحمر والبحر الأخضر ، كان شيء أبدي يتمثل له في كل ثانية .

وليس أكثر من السعادة الفويشرية ، لم يكن يستشف أبدية خارج انحناءة الأيام . كانت السعادة بشرية والأبدية يومية . وكان كل شيء يكمن في ان يعرف

الانسان أن يتواضع وان ينظم قلبه مع ايقاع الأيام ، بدلاً من أن يحني ايقاعها وفق انحناءة أملنا .

وكما أنه ينبغي معرفة التوقف في الفن ، وأن لحظة ما تأتي دائماً ينبغي فيها لمنحوتة ما ان لا تُمس بعد ، وان رغبة في الغباء تخدم فناناً بهذا الصدد ، أكثر من أشد وسائل التبصر إرهافاً ، كذلك لا بد من حد أدنى من الغباء لاستكمال السعادة لحياة ما .

من جهة أخرى ، كان مرسو يلعب البليار يوم الاحد ، مع بيريز . كان بيريز اكتع . وكانت ذراعه المبتورة مقطوعة فوق الكوع . وهكذا كان يلعب بطريقة غريبة ، فكان يكوّر جذعه ويسند جدعته على طرفها . وعندما كان مرسو يذهب ليصطاد صباحاً ، كان يعجب دائماً ببراعة الصياد الشيخ الذي كان يمسك بجذافه الايسر تحت ابطه ويقف منتصباً في المركب ، وجسمه مائل فيدفع احد الجذافين بصدره والآخر بيده . وكان كلاهما متفاهمين الى أبعد حد. وكان بيريز يصنع الحبار بمرقة لاذعة ،فكان يطحنها بعصيره. وكان مرسويتقاسم معه المرقة السوداء الملتهبة التي كان كلاهما يغمسها بالخبز في مقلاة مليئة بالشحم في مطبخ الصياد . ولم يكن بيريز ، من جهته ، يتكلم ابـــداً . وكان مرسو معترفاً له بقدرته على الصمت . وكان احياناً ، عند الصباح ، بعـد الحمام ، يراه وهو يلقي مركبه في البحر ، فكان يتقدم إذ ذاك قائلاً :

ــ هل اذهب معك يا بيريز ؟

وكان الآخر يقول : ــ اركب .

وإذ ذاك كانا يضعان الجذافين على ممسكين مختلفين ويجذفان معـــاً محاذرين (مرسو على الاقل) ان يربكا أقدامهما بصنانير الحبـــال. ثم كانا يصطادان، وكان مرسو يراقب الخيوط اللامعة حتى سطح البحر ، متموجـــة وسوداء تحت

الماء . كانت الشمس تتكسر على الماء ، ألوفاً من الشظايا ، وكان مرسو يستنشق رائحة ثقيلة خانقة كانت تصدر من البحر كأنها تنفـّس . وكان بيريز احياناً يُخرج سمكة صغيرة. فكان يرميها للحال قائلاً : « اذهبي الى أمّك ! » وعنـــد الحادية عشرة كانا يعودان ، فكان مرسو ، ويداه ملتمعتان بالقشور ، ووجهه منتفخ بالشمس ، يرجع الى منزله كما لو انه يدخـــل قبواً رطباً ، بينما كان بيريز يذهب ليهيء طبقاً من السمك كانا يأكلانه معاً عند المساء . ويوماً بعد يوم ، كان مرسو يمضي في حياته كما كان يمضي في الانزلاق على الماء . ولما كان الانسان يتقـــدم بفضل مشاركة الذراعين والماء الذي يحمل وينقل ، فقد كان يكفيه بعض الحركات الرئيسية ، يد على جذع شجرة او ركض على شاطيء ، ليتماسك كاملاً وواعياً : هكذا كان يدرك حياة في حالتها النقية ، وكان يسترد نعيماً لم يكن يوهب إلا لأكثر الحيوانات حرماناً من الذكاء أو اكثرها هبة منه . وعند هذا الحـــد الذي ينكر فيه الفكرُ الفكر ، كان يلامس حقيقته ومعها مجده وحبـّه الأقصيين.

وبفضل برنار ايضاً ، كان يمتزج بحياة القرية . لقـــد كان مضطراً الى استدعائه بسبب وعكة بسيطة ، ثم تقابلا فيما بعد وغالباً بسرور . كان برنار صموتاً ، ولكن صمته كان مصحوباً بنوع من الفكر المرير كان يضفي اشعاعات في نظارتيه المقشـّرتين . كان قد مارس مهنته طويلاً في الهند الصينية ثم انسحب في الأربعين الى هذا الركن من الجزائر . وهو منذ بضع سنين يمضي فيها حيـاة هادئة مع امرأته ، وهي هندية صينية شبه خرساء ، ذات شعر مرفوع على شكل كعيكة وثوب عصري . وكان برنار ، بفضل قدرته على التسامح ، يتآلف مع جميع الاوساط . وبهذا كان يحب القرية كلها وكان محبوباً منها . وكان يرافق مرسو اليها .

كان مرسو يعرف جيـــداً مدير الفندق ، وهو صادح قـــديم كان يغني عند مكتبه ، وبين مقطعين من « التوسكا » كان يعد امرأته بضربة . وقـــد طلب من باتريس ان يشارك مع برنار في لجنة الاعياد .

وفي ايام الأعياد ، ١٤ تموز أو غيرها ، كانا يتنزهان وعلى الذراع ساعـــدة ذات ثلاثة الوان أو كانا يتناقشان مـــع بقية الاعضاء، حول طاولة من الكتان الاخضر لزجة بالمقبلات السكرّية ، إذا كانت منصة الموسيقيين محاطة بشجر المضاض او سعف النخل. بل لقد أرادوا ان يجروه يوماً الى صراع انتخابي، ولكن مرسو كان قد اتيح له ان يعرف المختار ، وكان « يشرف على مصائر بلدتـــه » (كما كان يقول) منذ عشر سنين. وشبه الخلود هذا كان يحدو بـــه الى ان يظنّ نفسه نابليون بونابرت. كان كرّاماً قد أوى حديثاً، فبنى لنفسه بيتاً على الطراز اليوناني . وكان قد دعا اليه مرسو ، وكان يتألف من طابق ارضي يعـــلوه طابق . ولكن المختار لم يكن يتراجـــع امام اية تضحية ، فكان ان زوّده بمصعد . وقد جعل مرسو وبرنار يجربانه ،فقال برنار بهدوء: « انه ينزلق جيداً». ومنذ ذلك اليوم ، أكن مرسو اعجاباً عميقاً للمختار. وكان هو وبرنار يستعملان تأثيرهما بكامله لكي يبقياه في الوظيفة التي كان يستأهلها بفضل كثـــير من المزايا .

وفي الربيع كانت القرية ذات السقوف الحمراء المتقاربة ، بين الجبـــل والبحر ، تعود فتختنق بالزهور والورود والجنبات المعترشة وبطنين الحشرات. وفي ساعة القيلولة ، كان مرسو يدلف الى سطيحته وينظر الى القرية تنـــام وترسل بخارها تحت الاشعة الفائضة . وكان تاريخ القرية يكمن في الخصام بين موراليس وبنغيش ، وهما معمران اسبانيان ثريان ، كانت سلسلة من المضاربات قد حوّلتهما الى مليونيرين . ومنذ تلك اللحظة ، كانت حمى العظمة قـــد امتلكتهما . فعندما كان احدهما يشتري سيارة ، كان ينتقي أغلاهـــا ثمنا . ولكن الآخر الذي كان يشتري مثلها كان يضع عليها مقابض من الفضة . وكان العبقري في هذه الحالة هو موراليس الذي كانوا يطلقون عليه لقب «ملك اسبانيا» ذلك انـــه في كل شيء، كان قد انتصر على بنغيس الذي كان يفتقر الى الخيال .

ففي اليوم الذي اكتتب فيه بنغيس ، اثناء الحرب ، بعدة مئات من آلاف الفرنكات للقرض الوطني ، صرح موراليس بقوله: « أنا أفعـــل احسن ، انني اعطي ابني » . وجند ابنه الذي كان ما يزال صغيراً ... وفي عام ١٩٢٥، كان بنغيس قد وصل من مدينة الجزائر بسيارة سباق فخمة من طراز « بوغاتي ». وبعد خمسة عشر يوما ، كان موراليس قد بنى لنفسه مرأبـــاً واشترى طائرة « كودرون » وكانت هذه الطائرة ما تزال ترقد في مرأبها .

يوم الاحد فقط كانوا يعرضونها امام الزوّار. وعندما كان بنغيس يتحدث عن موراليس كان يقول : « هذا العاري – القدمين » وكان موراليس يقول عن بنغيس : « قمينة الجير هذا » .

واصطحب برنار مرسو الى بيت موراليس ، فاستقبلها هذا في المزرعـــة الكبيرة المليئة بالزنابير وبروائح العنب ، استقبالاً مطبوعاً بكل دلائل الاحترام ، ولكنه كان يلبس حذاء الرياضة وقميصاً قصير الاكمام ، لأنه لم يكن يستطيع تحمل السترة والحذائين . وقد عرض عليها الطائرة ، والسيارات ، ومداليـــة الابن المؤطرة والمعروضة في الصالون . واخذ موراليس يشرح لمرسو ضرورة إبعاد الاجانب عن الجزائر الفرنسية (كان هو متجنساً « امـــا بنغيس ذاك ، مثــلا ») ثم قادهما الى اكتشاف جديد – فدخلوا حقلاً واسعاً للعنب اقيمت في وسطه مستديرة. وفي هذه المستديرة ُصفّ طقم من طراز لويس الخامس عشر ، صنع بأفخر الخشب والقماش . وهكذا كان موراليس يستطيع ان يستقبـــل ضيوفه في أراضيه . وقد أجاب على مرسو الذي كان يستعلم بأدب عما كان يحدث في أوقات المطر ، اجاب موراليس من دون ان يهتز من فوق سيكاره : « انني أستبدله » . وكانت العودات مع برنار تقضى إذ ذاك في تمييز الثري الكبير من الشاعر . فقد كان موراليس ، في نظر برنار ، شاعراً . وكان مرسو يفكر انـه كان جديراً به ان يكون امبراطوراً رومانياً رائعاً في عهد الانحطاط .

وبعد فترة من هذا الوقت ، أتت لوسيان لتقضي بضعة ايام في الشنوة ثم

رحلت . وذات احد صباحا ، أتت كلير وروز وكاترين يرددن الزيارة لمرسو كما كن قد وعدنه . ولكن باتريس كان الآن بعيداً جداً عن الحالة الفكريـة التي كانت قد دفعته الى مدينة الجزائر في الأيام الاولى لعزلته . ومع ذلك فقـــد سعد لرؤيتهن من جديد . وقد ذهب لاصطحابهن مع برنار عند موقف الباص الكناري الكبير الذي كان يقوم بالخدمة . كان اليوم رائعاً ، والقرية مكتظة بعربات القصابين المتجولين الجميلة الحمراء وبالورود الكثيفة والناس المرتدين الوانا زاهية . وقد جلسوا لحظة في مقهى ، بنـــاء على طلب كاترين . كانت تتأمل باعجاب هذا الالق وهذه الحياة ، وخلف الحائط الذي كانت تستند اليه كانت تحزر وجود البحر . وفي لحظة الذهاب انفجرت موسيقى مذهـــلة في شارع قريب جداً . كان ، بلا شك ، «مارش التوريادور» في «كارمن» ، ولكنه كان من الصخب والحيوية بحيث انه كان يحول دون ان تحتفظ الآلات بدورها . قال برنار : «إنه مجتمع الرياضة» . ومع ذلك فقد لوحظ انبثاق عشرين موسيقيا مجهولاً كانوا لا يكفون عن النفخ في الآلات الهوائية المختلفة ، ثم انبثق من خلفهم موراليس ، على رأسه قبعة قش مرتدّة الى خلف وموضوعة على منديل ، فيما كان يترطب بمروحة دعائية . كان قداستأجر هؤلاء الموسيقيين من المدينة لأنه ، كما فسر ذلك فيما بعد ، بهذه الأزمة تبدو الحياة حزينة اكثر مما ينبغي . وقد جلس ورتب من حوله الموسيقيين الذين أنهوا لحن سيرهم . كان المقهى مكتظا بالجمهور . إذ ذاك نهض موراليس ، وبحركة دائرية قال بوقار : «بناء على طلبي ، ستعزف الفرقة الموسيقية من جديد «توريادور» » .

وكانت الحمقاوات الصغيرات ، عند ذهابهن ، يختنقن من الضحك . ولكن حين وصلن الى البيت ، في ظل الغرف التي كانت تحيل البياض المتألق للجدران المليئة بشمس الحديقة اكثر حساسية ، وجدن من جديـد صمتا وتجاوبا عميقا عبر عن ذاته ، عند كاترين ، بالرغبة في أخذ حمام شمسي على السطيحة . عند ذلك أعاد مرسو برنار . وكانت هذه هي المرة الثانية التي كان برنار يطلع فيها

على شيء من حياة مرسو . ولم يسبق لهما قط ان تكاشفا بشيء ، إذ كان مرسو يعي أن برنارلم يكن سعيداً ، وكان برنار حائراً بعض الشيء أمام حياة مرسو . وقد افترقا من غير ان يقولا كلمة . واتفق مرسو مع صديقاته على الذهاب في رحلة صباح الغد الباكر. كانت الشنوة عالية جداً، وكانت صعبة التسلق. وقد كان ثمة يوم جميل من التعب والشمس ينتظرهم .

في الصباح الباكر ، تسلقوا المنحدرات الاولى القاسية. كانت روز وكلير تتقدمان ، وكان باتريس يقفل المسيرة مع كاترين . كانوا صامتين. وكانوا يرتفعون شيئاً فشيئاً فوق البحر الذي كان ما يزال أبيض بين غيوم الصباح. وكان باتريس يلتزم الصمت ايضاً؛ مندمجاً كلياً بالجبل ذي الجمة الملوطة الشعث بالسورنجان ، وبالينابيع المثلوجة ، وبالظل والشمس ، وبجسده الذي كان يوافق ثم يرفض . كانوا يلجون جهد السير المكثف ، ونسيم الصبح في رئاتهم كحديد محمي او موسى محدّدة ، مانحين انفسهم كلياً لهذه المثابرة ولهذا التفوق على الذات اللذين كانا يجهدان لينتصرا على المنحدر . واحست روز وكلير بالتعب،فأبطأتا سيرهما. فتقدمت كاترين ومرسو، وما لبثا ان غابا عن نظرهما .

قال باتريس : « هل كل شيء على ما يرام ؟ »

قالت : « نعم . هذا جميل جداً » .

كانت الشمس ترتفع في السماء ، ومعها صرير حشرات كان يتفاقم مع الحرارة . وفيما بعد خلع باتريس قميصه ، وتابع طريقه عاري الصدر . كان العرق يسيل على كتفيه ، حيث كانت الشمس قد شالت قشارة الجلد . وسلكا طريقاً صغيرة كانت تبدو محاذية جنب الجبل . وكانت الاعشاب التي كانا يسحقانها اكثر نداوة . وما لبث ان استقبلها صوت ينابيع وتدفّق نداوة وظلال . ورشّ أحدهما الماء على الآخر ، وشربا قليلاً ، ثم تمدّدت كاترين على العشب ، بينما كان باتريس ، وشعره مسود من المساء ومشبوك على جبينه يخفض عينيه أمام المشهد المغطى بالخرائب ، وبالطرقات اللماعة وبتألقات الشمس ، ثم

جلس قرب كاترين .

قالت كاترين :

ــ مرسو ، ما دمنا وحدنا ، قل لي ان كنت سعيداً ؟

قال مرسو :

ــ انظري .

كانت الطريق تهتز في الشمس، وكانت طائفة كبيرة من البكتيريات المتعددة الألوان تصعد اليها . وكان باتريس يبتسم ويداعب ذراعيه .

ــ أردت فقط ان اسألك. وبالتأكيد، فانك لن تجيب إن كان ذلك يزعجك. (وترددت) هل تحب زوجتك ؟

ابتسم مرسو :

ــ ليس هذا من الضروري .

وأمسك بكتف كاترين ، ورش بالماء وجهها وهو يحني رأسه وأضاف يقول :

ــ الخطأ ، يا كاترين الصغيرة ، هو الاعتقاد بوجوب الاختيار ، بوجوب عمل ما نريده ، بان هناك شروطاً للسعادة . ان ما يهم فقط ، هو إرادة السعادة ، نوع من الوعي الهائل الحاضر ابداً . أما الباقي ، النساء ، الأعمال الفنية أو النجاحات الدنيوية ، فليس إلا ذرائع . انه شبكة تنتظر تطريزاتنا.

قالت كاترين وعيناها مليئتان بالشمس :

ــ نعم .

ــ ان ما يهمني انما هي صفة معينة للسعادة. انني لا استطيع ان أتذوق السعادة إلا في المواجهة العنيدة العنيفة التي تقوم بها مع نقيضها . تسألينني ان كنت سعيداً ؟ كاترين ! انك تعرفين القول المأثور : « لو كان علي أن أعيد

حياتي » . فانني سأعيدها كما هي. وبالطبع ، لا يمكنك ان تعرفي ما يعنيه ذلك.

قالت كاترين : لا .

– كيف أفسّر لك ذلك ، يا صغيرتي . لئن كنت سعيداً ، فذلك بفضل احساسي بالخطأ . لقد كنت بحاجة الى الرحيل والى كسب هذه الوحدة التي استطعت فيها ان اواجه في نفسي ما كان ينبغي مواجهته ، ما كان شمساً وما كان دموعاً . . اجل ، انني، بشرياً، سعيد.

ووصلت روز وكلير، فاستأنف الجميع السير. كان الطريق ما يزال يحاذي الجبل تاركاً إياهم في منطقة نباتية غزيرة . وكانت الطرق ما تزال محاطة بشجر الصبار والزيتون والعناب . وكانوا يلتقون بعرب يركبون حميراً . ثم صعدوا. كانت الشمس تصفع الآن بضربات محتدمة كل حجر في الطريق. وعند الظهر ، كانوا مسحوقين بالحرارة ، سكارى من العطور والتعب، فرموا أكياسهم وتخلوا عن بلوغ القمة . لقد كانت المنحدرات صخرية ومليئة بالصوان . وظللتهم شجرة سنديان ضامرة بظلها المستدير . وسحبوا المؤن من الأكياس وأكلوا . كان الجبل كله يرتج تحت الأشعة والزيزان ؛ وكانت الحرارة تصعد فتحاصرهم تحت سنديانتهم . وانقلب باتريس على الأرض ملتصق الصدر بالاحجار فتنشق عبيراً لاهباً . وكان يتلقى في بطنه ضربات الجبل الخرساء الذي كان يبدو في حالة عمل . وانتهت رتابة تلك الضربات ، وغناء الحشرات المصم بين الاحجار الحارّة والعطور البرّية – انتهت بان أنامته .

عندما استيقظ كان مكسواً بالعرق ، متيبساً . وكانت الساعة تقارب الثالثة ، وكانت الفتيات قد اختفين . وما لبثت ضحكات وصيحات ان انبأت عنهن. وكانت الحرارة قد خفّت. كان ينبغي الهبوط من جديد. وفي تلك اللحظة بالذات، ولأول مرة ، في منتصف الطريق، أصيب مرسو باغماء . وحين نهض، لمح البحر شديد الزرقة من خلال ثلاثة وجوه قلقة. واستأنفوا الهبوط على مهل، وعند المنحدرات الاخيرة ، طلب مرسو استراحة. كان البحر يخضرّ مع السماء،

وكانت عذوبة تامة تصعد من الأفق وعلى الروابي التي كانت تمدّد الشنوه حول الجون الصغير ، كانت شجرات السرو تسودّ على مهل . كانوا جميعاً صامتين ، ومع ذلك قالت كلير :

ـ يبدو عليك التعب .

ـ بلا شك . ايتها الفتاة الصغيرة .

ـ إسمع . ان الأمر لا يعنيني . ولكن هـذه المنطقة لا تناسبك في شيء . انها مفرطة القرب من البحر ، مفرطة الرطوبة . فلماذا لا تذهب لتعيش في فرنسا ، في الجبال ؟

ـ هذه النقطة لا تفيدني شيئاً ، يا كلير ، ولكنني سعيد فيها . انني احس بوفاق مع نفسي .

ـ انما ادعوك الى هذا لكي تستطيع ان تكون كذلك كلياً ولمدة اطول .

ـ لا يعيش المرء سعيداً لمدة أقصر او أطول. انه يكون سعيداً، هـذا كل شيء . والموت لا يمنع شيئاً. انه عارض طارىء للسعادة في هذه الحالة.

وسكتوا جميعا . ولكن روز قالت بعد فترة :

ـ لست مقتنعة .

وعادوا الى البيت على مهل في المساء الهابط .

وتكفّلت كاترين باستدعاء برنار . وكان مرسو في غرفته ، ومن فوق ظلّ مربعات البيت اللماع ، كان يرى بقعة الدرابزون البيضاء، والبحر كشريط من القماش الداكن المتموج يعلوه الليل الاكثر إضاءة ، وان كان بلا نجوم. وكان يحس الضعف. ولكن ضعفه ، بفضل أعجوبة خيّرة ، كان يخفف من همّه ويجعله صافياً . وحين طرق برنار الباب ، أحس مرسو بأنه سيقول له كل شيء ليس بسبب

ان سرّه يثقل عليه. فانه لم يكن في ذلك أي سر. فلئن كان قد كتم سره حتى الآن،فانما كان ذلك بالقدر الذي يحفظ به المرء افكاره في بعض الاوساط لأنه يعلم انها ستصدم الافكار المسبقة والغباوة. ولكنه اليوم، بالرغم من كل تعب جسده وصدقه العميق، فان مرسو، شأنه في ذلك شأن الفنان بعد ان يكون قد داعب وبنى لفترة طويلة عمله واحس بضرورة اخراجه الى النور والتواصل اخيرا مع البشر، ان مرسو كان يحس أن عليه ان يتكلم. ومن غير ان يكون متأكداً من انه سيفعل ذلك، كان ينتظر برنار بنفاد صبر.

ومن غرف الطابق الارضي تصاعدت ضحكتان نديتان جعلتاه يبتسم. في هذه اللحظة، دخل برنار، فقال:

ـ ما المسألة؟

قال مرسو: كما ترى.

وضع السماعة على صدره. لم يكن باستطاعته ان يقول شيئا. ولكنه كان يودّ ان يجري له تصويراً على الاشعة، اذا كان يقوى على ذلك.

وأجاب مرسو: ـ فيما بعد.

صمت برنار وجلس على حافة كوّة النافذة، ثم قال:

ـ انني لا احب ان اكون مريضاً، انا. انني اعرف ما يعنيه ذلك. ليس هناك ما هو قبيح ومُحطّ اكثر من المرض.

كان مرسو غير مكترث. وقد نهض من مقعده، وقدّم لفائف لبرنار فأشعل واحدة منها وهو يضحك:

ـ هل استطيع ان اطرح عليك سؤالاً يا برنار؟

ـ نعم.

ـ انك لا تأخذ حمامات بحر قط ، فلماذا إذن كنت قد اخترت هـــذا المكان لتعتزل ؟

ـ آه ! إنني لا أدري تماماً . كان ذلك منذ زمن بعيد .

وبعد فترة أضاف :

ـ ثم انني تصرّفت دائماً بدافع من ضغينة. اما الآن فقد تحسّنت الأمور . في السابق ، كنت أريد ان اكون سعيداً ، وان اعمل ما ينبغي عمله ، اناستقر مثلاً في بلد يروق لي . ولكن الاستباق العاطفي هو دائما زائف . وإذن،فيجب ان نعيش كأسهل ما نستطيع ان نعيش، وألا نقتسر الأمور. ان ذلك فظبعض الشيء . ولكنه ايضا وجهة نظر اجمل فتيات العالم . في الهند الصينية ، مضيت الى أبعد الحدود . أما هنا فانني أجتر . ببساطة .

قال مرسو ، من غير ان يتوقف عن التدخين ، وهو غاطس في مقعده ينظر الى السقف :

ـ نعم ، ولكني لست متأكدا من ان كل استباق عاطفي هو زائف . ان هذه الاستباقات هي فقط ضالة . وعلى كل حال ، فان التجارب الوحيدة التي تهمنى هي تلك التي يكون فيها كل شيء بالضبط كما نأمل ان يكون .

وابتسم برنارد :

ـ اجل ، مصير وفق المقاييس .

قال مرسو ، من غير ان يتحرك :

ـ ان مصير انسان ما ، هو دائما أخاذ إذا استطاع ان يتزوجـــه بشغف. ومصير أخّاذ ، بالنسبة للبعض ، هو دائما مصير وفق مقاييس .

قال برنار : « نعم » . ونهض بجهد ونظر لحظة الى الليل ، وظهره متجه بعض الشيء نحو مرسو .

ومن غير ان ينظر اليه ، استأنف يقول :

– انك معى في هذا البلد الرجل الوحيد الذي يعيش بلا رفقـة . اننى لا اتحدث عن زوجتك وعن اصدقائك . فأنا اعرف جيداً انهم أحداث عرضية ، ومع ذلك ، فيبدو عليك انك تحب الحياة اكثر منى (واستدار اليه) ذاك ان حب الحياة ، بالنسبة لي ، ليس أخذ الحمامات ، بل ان يعيش المرء بطريقـــة مدوّخة ، جامحة . نساء، ومغامرات، وبلاد. ان تعمل ، أن تُخضِع شيئاً ما. حياة ملتهبة ومدهشة . أقصد ... إفهمنى ... (كان يبدو وكأنه خجل من ان يكون قد تحمس) اننى اكثر حبا للحياة من ان اشفى غلتي من الطبيعة .

كان برنار يلتقط مسماعه ويغلق حقيبة عدته . فقال له مرسو :

– إنك في الواقع مثالي .

لقد كان لديه هو الشعور بان كل شيء كان محصوراً في هـــذه اللحظة التي تمتد من الولادة حتى الموت، وان كل شيء يحكم عليه ويكرّس هنا .

قال برنار بنوع من الحزن :

– الواقع أن نقيض المثالي هو ، في غالب الاحيان ، رجل بلا حب .

قـال مرسو وهو يمدّ اليه يده :

– لا تعتقد ذلك .

وشد برنار عليها فترة طويلة ، ثم قال مبتسماً :

– إذا اردنا التفكير مثلك ، فلن يكون هناك إلا رجال يعيشون على يأس كبير أو أمل كبير .

– ربما على الاثنين .

– أوه ، انني لا أطرح سؤالا !

قال مرسو بجد :

ـ انني اعلم .

ولكن حين بلغ برنار الباب ، ناداه مرسو ، مدفوعاً باندفاع لاواعٍ :

قال الطبيب وهو يلتفت : « نعم » .

ـ هل انت قادر على ان تكنّ احتقاراً لانسان ؟

ـ أظن .

ـ بأية شروط؟

وفكر الآخر :

ـ يبدو لي ان ذاك بسيط بما فيه الكفاية . في جميع الحالات التي يكون فيها المرء موفوعاً بالمصلحة او بحب المال .

قال مرسو :

ـ هذا بسيط ، بالفعل . مساء الخير يا برنار .

ـ مساء الخير .

وإذ بقي مرسو وحيدا ، أخذ يفكر . الى الحد الذي بلغه ، فان احتقار انسان كان يتركه لا مبالياً . ولكنه كان يجد لدى برنار اصداء عميقة كانت تقربه منه . وكان يبدو له غير محتمل ان يدين قسم منه القسم الآخر. أتراه كان قد تصرف بدافع المصلحة ؟ كان قد وعى هذه الحقيقة الاساسية واللا أخلاقية بأن المال هو احدى الوسائل الأضمن والأسرع لكي يكتسب كرامته . وكان قد توصل الى طرد المرارة التي تستولي على كل نفس كريمة النسب وهي تتأمل ما في ولادة مصير جميل وشروط نموه من ظلم ونذالة . وتلك اللعنة القذرة المثيرة التي تجعل الفقراء يُنهون في البؤس الحياة التي بدأوها في البؤس ، كان قد أبعدها وهو يحارب المال بالمال ، ومع الكراهية الكراهية . ومن هذا الصراع بين وحش ووحش ، كان يتفق احياناً ان يخرج الملاك ، منغمساً باكمله في سعادة جوانحه ومجده ، تحت نفحة البحر الدافئة . كان يبقى فقط انه لم يكن قد قال شيئاً لبرنار وان

عمله سيظل بعد الآن سراً .

في عصر اليوم التالي ، حوالي الساعة الخامسة ، ذهبت الصديقات . وفي لحظة الصعود الى الاوتوبيس ، التفتت كاترين الى البحر وقالت :

— الى اللقاء ، ايها الشاطىء .

وبعد لحظة ،كانت ثلاثة وجوه ضاحكة تنظر الى مرسو عبر زجاج الداخل . وكحشرة ضخمة مذهبة ، كان الأوتوبيس الاصفر يختفي في الأشعة . وبالرغم من ان السماء كانت صافية ، فقد كانت خانقة بعض الشيء . وإذ كان مرسو وحيداً في الطريق كان يحس في اعماق قلبه مزيجاً من الخلاص والحزن . اليوم فقط كانت وحدته تصبح حقيقية لأنه اليوم فقط كان يحس نفسه مرتبطا بها . وان يكون قد قبلها ، وان يدرك انه بعد الآن سيد ايامه القادمة ، فان ذلك كان يملأه بالكآبة التي تلتصق بكل عظمة .

وبدلا من ان يسلك الطريق الرئيسية ، عاد بين شجرات الخرنوب والزيتون في ممر صغير منحرف كان يمر عند اسفل الجبل وينتهي خلف بيته . وقد سحق بقدمه بعض حبات الزيتون ولاحظ ان الطريق كان باكمله مخططا بالبقع السوداء . في آخر الصيف ، كانت شجرات الخرنوب تضفي رائحة حب على الجزائر كلها . وفي المساء او بعد المطر ، كانت الارض كلها تبدو وكأنها ، بعد ان تكون قد منحت نفسها للشمس ، تريح بطنها المبتل ببذارِ عطرهُ كعطر اللوز المر . وطوال النهار ، كانت رائحتها قد هبطت من الشجرات الكبيرات ، ثقيلة وخانقة . وفي هذا الممر الصغير ، مع المساء ، وتأوه التربة الرخي ، كانت الرائحة تغدو خفيفة ،لا يكاد انف باتريس يحسها كعشيقة تخرج معها في الطرقات بعد عصر خانق ، فتنظر اليك ، وكتفها لصق كتفك ، وسط الاضواء والناس .

امام رائحة الحب هذه وثمراتها المسحوقة العطرة ، أدرك مرسو أن الموسم ينتهي ، وان شتاء كبيراً سيطل . كان ناضجاً لانتظاره . ومن هذا

الممر ، لم يكن البحر يرى ، ولكن كان باستطاعة المرء ان يلاحظ عند قمة الجبل غيوماً خفيفة محمرة كانت تبشر بالمساء . وعلى الارض ، كانت بقع من الأشعة تشحب بين ظلال الاغصان .

وتنشق مرسو بعنف الرائحة المرة العطرة التي كانت تكرس في ذلك المساء عرسها مع التربة . وهذا المساء الذي كان يهبط على العالم ، في الطريق بين شجرات الزيتون والمصطكا ، على الكروم والتربة الحمراء ، قرب البحر الذي كان يهدر بهدوء ، هذا المساء كان يدخل فيه كالمد . كثير من الامسيات الشبيهة كانت في نفسه كوعد بالسعادة . وأن يحس بهذه الأمسية كسعادة ، ذلك ما جعله يقيس الطريق الذي كان قد اجتازه من الأمل حق النصر . وفي براءة قلبه ، كان يتقبل هذه السماء الخضراء وهذه الارض التي يبللها الحب ، بارتعاشه الهوس والشهوة نفسها التي تملكته حين قتل زغرو في براءة قلبه .

الفَصلُ الخامِسُ

في كانون الاول ، أزهرت شجرات اللوز . وفي آذار ، اكتست شجرات الإجاص والدراق والتفاح بالازهار . وفي الشهر الذي تلا ، ربت الينابيع ربواً غير ملحوظ ، ثم عادت الى منسوب طبيعي . وفي أوائل أيار قطعوا الحشيش ، وفي الايام الاخيرة ، حصدوا الشوفان والشعير . وكانت اشجار المشمش قد انتفخت بالصيف . وفي حزيران ، ظهر الإجاص الباكوري مع الحصاد الكبير. وكانت الينابيع قد بدأت تشح والحرارة تتفاقم . ولكن دم الارض ، الناضب في هذا الجانب ، كان يُزهر جانب آخر في القطنَ ويسكّر أوائل الاعناب. وهبت ريح عنيفة لاهبة جففت الاراضي وأشعلت حرائق في كل مكان تقريباً . ثم فجأة ، انقلبت السنة . وبسرعة انتهى القطاف . وكنس المطر الارض بفيضانات كبيرة من أيلول حتى تشرين الثاني. ومعها ، وما كادت اعمال الصيف تنتهي حتى بدأت حقول القمح وأوان البذار الاولى ، بينما كانت الينابيع تتضخم فجأة وتتفجر سيولاً . وفي آخر السنة كان القمح قد بدأ ينبت في بعض الاراضي ، بينما لم تكد أراض أخرى تنتهي من استقبال الحراثة . وبعد ذلك بقليل ، غدت شجرات اللوز من جديد بيضاء في السماء المثلجة الزرقاء . وتتابعت السنة الجديدة في الارض والسماء . وغُرس الدخان ، وحرثت الكرمة وكبرتت ، وطُعّمت الاشجار . وفي الشهر نفسه ، نضج الزعرور ، ومن جديد ، أقبل أوان حصاد الكلأ ، وحصاد الصيف . وفي منتصف السنة ، كانت الثمار التارّة التي تلتصق بالاصابع تغطي الطاولات : التين ، الدراق

والاجاص التي تؤكل بشراهة بين دراسين . وفي موسم القطاف التـــالي ، اكتست السماء ، فمرت أسراب سوداء صامتة من الزرازير والسمّن ، قادمة من الشمال . كان مرورها يعني ان الزيتون قـد بدأ ينضج . وحوّش فعلاً بعد فترة من مرورها ، وفي الارض اللزجة نبت القمح مرة ثانيـة . ومرت رفوف ضخمة من الغيوم قادمة هي أيضاً من الشمال على البحر وعلى الارض ، فمسحت عن الماء زَبده وتركته نقياً مثلجاً تحت سماء من البلور . ولعدة أيام ، حصل في المساء برق بعيد صامت . وبدأت أيام البرد الاولى .

في هذا التاريخ تقريباً ، لزم مرسو الفراش لأول مرة . فقد حبسته نوبات داء الجنب وألزمته غرفته شهراً . وعنـــدما شفي ، كانت أواخر منحدرات شنوة قد اكتست بالاشجار المزهرة التي كانت تنحدر نحو البحر . لم يسبـق قط لأي ربيع ان وجده حساساً إلى هذا الحد ، وأول ليلة من نقاهته ، مشى طويلاً عبر الاراضي حتى الرابية المليئة بالخرائب حيث كانت ترقـد تيبازا . وفي صمت مسكون بأصوات السماء الحريرية ، كان الليـــل اشبه بحليب على العالم . وكان مرسو يمشي على الشاطىء الصخري ، مشبعاً بتأمل رزين لهـــذا الليل . وكان البحر ، دونـــه قليلاً ، يهدر بهدوء . وكان يرى مليئاً بالقمر والخمل ، طرياً ، أملس كأنه وحش . في هذه الساعة التي كانت، تبدو له فيها حياته بعيدة جداً ، بدا لمرسو وهو وحيد ، غير مكترث بشيء ولا بنفسه ، انه كان قد بلغ أخيراً ما كان يبحث عنه ،وان هذا السلام الذي كان يملأه كان قد ولد من استسلامه الصبور الذي كان قد تابعه وبلغه ، بمساعدة هذا العالم الحار الذي كان ينكره بلا غضب . كان يمشي بخفة ، وكان وقع خطاه يبـدو له غريباً ، مألوفاً بلا شك ، ولكن كحفيف الحيوانات بـين ادغـال الزعرور ، وايقاعات البحر أو خفقات الليل في اعماق السماء . وكان كذلك يشعر بجسده، ولكن بالاحساس الخارجي ذاته الذي يحس به النفحة الحارة لهذا الليل الربيعي ورائحة الملح والعفن التي كانت تصعد من البحر . كانت جولاته في العالم، واصراره

على تطلب السعادة ، وجرح زغرو المريع ، المليء بالمخ والعظم ، والساعات العذبة المحترسة في « البيت امام العالم » ، وامرأته ، وآماله وآلهتـــه ، كل ذلك كان ماثلاً امامه ، ولكن كقصة مفضلة بين جميع القصص ، من غير سبب مقبول ، غريبة ومألوفة بطريقة خفية في آن واحـــد ، كتاب أثير يدغدغ ويؤكد أعمق ما في القلب ، ولكنه كتاب كتبه آخر . ولأول مرة ، لم يكن يحس في نفسه أية حقيقة أخرى غير حقيقة هوس للمغامرة ، رغبـــة نسغ ، غريزة ذكية ودية لقرابة العالم .

وبلا غضب ولا حـــقد ، لم يكن يعرف ندماً . كان جالساً على صخرة يحس وجهها المجدور تحت أصابعه ، وهو ينظر إلى البحر ينتفـخ بصمت تحت ضوء القمر . كان يفكر بوجه لوسيان الذي كان قد داعبـه وبدفء شفتيها . وعلى سطح الماء السوي ، كان القمر ، الشبيه بالزيت ، يضـع ابتسامات طويلة تائهة . ولا بد أن الماء كان دافئـــاً كفم ، رخياً مستعداً للانفهار تحت جسم انسان . وإذ ذاك ، أحس مرسو وهو ما يزال جالساً ، كم كانت السعادة قريبة من الدموع ، مغمورة كلـيّة في هذا الهوس الصامت الذي يُنسَج فيـه الامل واليأس ممزوجين من حياة انسان . كان مرسو واعياً ومع ذلك غريباً ، منهوشاً بالهوس ومتجرداً ، فكان يدرك ان حياته نفسها ومصيره كانا ينتهيان هنا ، وان كل جهده سيبذل بعد الآن ليتدبر أمره مع هـــذه السعادة وليواجه حقيقتها المرعبة .

كان ينبغي له أن يغطس في البحر الحار ، وان يتيه ليجد نفسه ثانيـة ، وان يسبح في القمر والدفء لكي يصمت ما كان في داخله باقيـاً من الماضي ولكي يولد لحن سعادته العميق . وتعرّى ، ونزل بضعة صخور ودخل في البحر . كان حاراً كجسد ، وكان يتزلق على طول ذراعه ، ويلتصق بساقيـه بضمّة لا تحتجز وهي ذلك مع حاضرة أبداً . وكان هو يسبح بانتظام ويحس بعضلات ظهره توقع حركتـه . وكلما رفـــع ذراعه ، كان يرمي على البحر الشاسع

قطرات فضة متراشقة ، ممثلة ، أمام السماء الخرساء الحية ، البذور الرائعة لحصاد من السعادة . ثم كانت الذراع تغطس من جديد ، كسكة حراثة قوية ، فتفلح المياه وتشقها الى نصفين لكي تتخذ فيها سنداً جديداً واملاً أكثر شباباً . وخلفه كان ينبعث من تخبّطات قدميه فوران زبد،وفي الوقت نفسه صوت ماء هادر، صاف صفاء غريباً في الوحدة وصمت الليل . ولإحساسه بايقاعه وقوته ، كان نوع من الحماسة يكتسحه ، فيتقدم بمزيد من السرعة ، وفيما بعد وجـــد نفسه بعيداً عن الشواطىء ، وحيداً في قلب الليل والعالم . وفكر فجأة بالأعماق التي تمتد تحت قدميه فأوقف حركته . كل ما قد كان تحته كان يجذبه كأنه وجـــه عالم مجهول ، امتداد هذا الليل الذي كان يعيده لذاته ، وقلب حيـــاة من ماء وملح لم تكتشف بعد . وراوده إغراء أبعده في الحال ، وكان متعباً جسدياً تعباً رائعاً ، فرجع نحو الضفة . وفي تلك اللحظة دخل فجأة في تيـار مثلج فاضطر الى التوقف ، مصطك الاسنان ، مضطرب الحركات . وهـذه المفاجأة التي واجهه بها البحر تركته دهشاً مذهولاً ، وكان ذلك الثلج ينفذ إلى اطرافه فيحرقه كحب إله بحماس صاف ومهووس كان يخلفه بلا قوة. وعاد بمشقة اكبر، وعلى الضفة ، بمواجهـــة السماء والبحر ، ارتدى ملابسه وأسنانه تصطك وهو يضحك من السعادة .

حين عاد إلى منزله ، تملّكه انزعاج . ومن الممر الضيق الذي كان يصعد من البحر نحو دارته ، كان يستطيع أن يرى الرعن الصخري الذي كان يقابله ، وجذوع الأعمدة والخرائب الملساء. وفجأة ، انقلب المشهد ووجد نفسه مستنداً إلى صخرة ، نصف منقلب على دغل من شجر الزعرور كانت أوراقه المسحوقة تترك رائحتها تفوح . وعاد بمشقة الى الدارة . كان جسده الذي كان قـد حمله الساعة إلى آخر حدود الفرح يُغرقه الآن في ضيق كان يأخذ بأحشائه ويغلق منه العينين . وصنع لنفسه شاياً . ولكنه كان قد أخذ إناء قذراً، ليسخن الماء، فكان الشاي مدهناً حتى الغثيان . ومع ذلك فقد شربه قبل أن يذهب لينام .

وحين خلع حذاءه ، لاحظ على يديه اللتين كان الدم قد انسحب منهما ، ان اظافره وردية جداً،ومتسعة ومحنية حتى انها تغطي اطراف الاصابع . انه لم يسبق له قط ان كانت له مثل هذه الاظافر التي كانت تضفي على يده مظهراً من الالتواء والانحراف . وكان يحس صدره محصوراً في ملزمة . وسعل وبصق عدة مرات بطريقة طبيعية بالرغم من ان فمه احتفظ بمذاق دم .

وفي السرير ، انتابته ارتجافات طويلة ، كان يحسها تصعد من أقصى الجسد وتلتقي عند الكتفين كخيطي ماء مثلج ، بينما كانت اسنانه تصطك من فوق الشراشف التي كانت تبدو له مبتلة . وكان يخيل اليه ان البيت واسع والاصوات المألوفة التي كان يسمعها كانت تتسع حتى اللانهاية كما لو انها لم تكن تلتقي جداراً يضع جداً لأرتجاعاتها . كان يسمع البحر كاندفاق ماء وحصى ، وخفقان الليل وراء زجاجه الكبير ، ونباح الكلاب في المزارع البعيدة . وأحس بالحرارة ، فألقى بالاغطية ، ثم أحس بالبرد ، فأعادها . وفي هذا التأرجح بين عذابين ، وذلك الاسترخاء وهذا القلق الذي كان ينتزعه من النوم ، وعى فجأة انه كان مريضاً . وعراه ضيق إذ فكر أنه قد يموت في هذه الحالة من اللاوعي ، ومن غير ان يستطيع النظر أمامه . وفي القرية قُرع جرس الكنيسة ، من غير ان يستطيع معرفة عدد الدقات . لم يكن يريد أن يموت مريض . بالنسبة له على الأقل ، لم يكن يريد ان يكون المرض ما هو غالباً ، انحالاً وانتقالاً نحو الموت . إن ما كان يوده بعد بلا وعي ، انما هو لقاء حياته ، وهي مليئة دماً وصحة ، مع الموت ، وليس مواجهة الموت مع ما كان الآن أشبه بالموت .

ونهض ، فجذب بجهد مقعداً نحو النافذة وجلس وهو يغطي نفسه . وخلف الستائر الخفيفة ، في الأمكنة التي لم تكن الثنايا تكثف فيها القماش ، كان يرى نجوماً . تنفس طويلاً وشد على ذراعي مقعده ليهدىء يديه اللتين كانتا ترتجفان. كان يريد أن يستعيد صفاءه .

وكان يفكر : « هذا ممكن » . وفي الوقت نفسه ، كان يفكر بأن الغاز كان ما يزال مشتعلاً في المطبخ فكان يردد : «هذا ممكن » . كان الصفاء هو أيضاً صبراً طويلاً ، كل شيء كان يمكن اكتسابه والحصول عليه وكان يضرب بقبضته ذراعي مقعده . ان المرء لا يولد قوياً ، أو ضعيفاً أو مقطوعاً ، بل هو يصبح قوياً ، ويصبح واعياً . ان المصير ليس في الانسان بل حول الانسان . ولاحظ إذ ذاك انه كان يبكي . كان ضعف غريب ، نوع من الجبن منبثق من المرض ، يعيده إلى الطفولة وإلى دموعه . فكان يحس برداً في يديـــه وقرفاً كبيراً في القلب . وكان يفكر بأظافره ، وتحت ترقوته دحرج غـدداً بدت له ضخمة . وفي الخارج كان كل ذلك الجمال المنتشر على العالم .

لم يكن يريد أن يغادر حسّه للحياة وحرصه عليها . وكان يفكر بتلك الامسيات على مدينة الجزائر حيث يصعد في السماء الخضراء ضجيج الرجال وهم يخرجون من المصانع على نداء الصفارات . بين مذاق الابسنت ، والزهور البرية في الخرائب وعزلة البيوت الصغيرة المحاطة بالسرو في « الساحل » ، كانت تحاك صورة لحياة كان الجمال والسعادة ، ينتزعان فيها من اليأس وجهه ، وكان باتريس يجد فيها نوعاً من الأبدية الهاربة . لم يكن يرغب في ان يترك هذا ولا أن تكون هذه الصورة قادرة على الاستمرار من دونه . وامتلأ بالتمرد والشفقة ، فرأى إذ ذاك وجه زغرو متجهاً نحو النافذة . وسعل طويلاً . وكان يتنفس بمشقة . وكان يختنق في ثياب الليل . وكان يحس بالبرد ، وكان يحس بالحر . كان يحترق بغضب كبير عكر ، وكانت قبضتاه مضمومتين . ودمه كله يخفق خفقات كبيرة تحت جمجمته . كان نظره فارغاً ، وكان ينتظر الرعشة الجديـــدة التي ستغمره من جديد في الحمّى العمياء . وجاءت الرعشة، فردته إلى عالم رطب مغلق أُغمضت فيه عيناه فأسكتت تمرد الحيوان ، الحريص على عطشه وجوعه . ولكن قبــل أن ينام أتيح له أن يرى الليل يبيض قليلاً خلف الستائر ، وان يسمع ، مـــع الفجر ويقظة العالم ، ما يشبه نداء كبيراً من الحنان والأمل كان يبرر بلا شك

رعبه من الموت ، ولكنه كان في الوقت نفسه يطمئنه بأنه سيجد مبرراً للموت في ما سبق ان كان مبرره الكامل للحياة .

عندما استيقظ ، كان النهار قد قطع شوطاً ، وكان شعب كامل من العصافير والحشرات يغني في الحر . وفكر بأن لوسيان كان لا بد ان تأتي اليوم ذاته ، وكان محطماً فعاد بمشقة الى سريره . وكان مذاق الحمى في فمه وذلك الضعف الذي يحيل الاشياء في عيني المريض أكثر صلابة والكائنات أكثر اكراهاً . واستدعى برنار فحضر ، منهمكاً على عادته وصموتاً ، وفحص نبضه ، وخلع نظارتيه ليمسح زجاجهما . وقال : « حالة سيئة » . ثم حقنه حقنتين . عند الثانية ، بالرغم من ان مرسو كان قليل الرهافة ، فقد اغمي عليه . وعندما استعاد وعيه ، كان برنار يمسك قبضته بيد وساعته باليد الأخرى ، وكان يتأمل التقدم المهتز لعقرب الثواني .

قال برنار :

ـ انت ترى ، إغماء لربع ساعة . إن قلبك يستسلم . وقد تموت ، في اغماءة جديدة .

أغمض مرسو عينيه . كان منهوكاً ، شفتاه بيضاوان وجافتان ، وتنفسه يصفر .

قال : ـ برنار .

ـ نعم .

ـ لا أريد ان أموت باغماءة . انني بحاجة إلى ان أرى بصفاء . انت تفهمني .

قال برنار :

ـ نعم .

وأعطاه عدة جرعات : « اذا أحسست بالضعف ، فأكسرها وابلعها . انه « ادرينالين » .

والتقى برنار ، وهو خارج ، لوسيان التي كانت قادمة .

– إنك على عادتك فتّانة .

– هل باتريس مريض ؟

– نعم .

– وهل وضعه خطير ؟

قال برنار :

– لا ، إنه بحالة جيدة جداً . (وقبل ان يذهب أضاف) في الواقـع ، أنصحك أن تتركيه وحيداً قدر الامكان .

قالت لوسيان :

– آه .. لا أهمية لذلك إذن .

طوال اليوم كله ، كان مرسو يختنق . وأحس مرتين بالفراغ البـارد العنيد يجتذبه الى اغماءة جديدة ، ومرتين سحبه الادرينالين من هذه الغطسة السائلة . وطوال النهار ، نظرت عيناه الداكنتان إلى القرية الرائعـة . حوالي الساعة الرابعة ، بزغ زورق كبير أحمر على البحر وتضخم شيئاً فشيئاً وهو يرشح شمساً وماء وقشوراً .

كان بيريز واقفاً يجذف بانتظام . وجاء الليـل اذ ذاك بسرعة . واغمض مرسو عينيه ، ولأول مرة منذ الليلة الماضية ، ابتسم . كان قـد لزم الصمت . وكانت لوسيان في غرفته منذ لحظة ، قلقة بغموض ، فأنكبت عليه وقبلتـه . قال مرسو :

– اجلسي . تستطيعين البقاء .

قالت لوسيان :

– لا تتكلم . ان هذا يتعبك .

وأتى برنار ، فحقن حقناً وذهب . وكانت غيوم كبيرة حمراء تمر بهدوء في السماء .

قال مرسو بجهد ، وهو غاطس في مخدته وعيناه شاخصتان الى السماء :

– كانت امي تقول لي ان ارواح الأموات هي التي كانت تصعد الى السماء ،

وكنت منذهلا أن تكون لي روح حمراء . والآن أدرك ان ذلــــك في أغلب الاحيان انما هو وعد ريح . ولكنه كذلك رائع .

وبدأ الليل ، كانت الصور تتقدم . حيوانات كبيرة خرافيـــة كانت تهز رأسها فوق المناظر الصحراوية. وأبعدها مرسو بلطف من اعماق حمّاه. كان يفسح المجال فقط لوجه زغرو بأخوته الدامية . ان الذي سبـــق ان أعطى الموت سيموت . وكما كان الامر بالنسبة لزغرو ، كانت النظرة الواعية التي كان يلقيها على حياته نظرة رجل . الى الآن كان قد عاش . والآن يمكن للناس ان يتحدثوا عن حياته . ومن هذا الانطلاق الكبير الجامح الذي كان قــد حمله الى الامام ، ومن الشعر الهارب خالق الحياة ، لم يكن يبقى الآن سوى الحقيقــة التي لا تجاعيد فيها والتي هي بنقيض الشعر .

ومن جميع الاشخاص الذين كان قــد حملهم في ذاته ككل انسان في بداية هذه الحياة ، من هؤلاء الكائنات التي كانت تمزج جذورها من غير أن تختلط ، كان يدرك الآن أيها قد كان: وهذا الاختيار الذي يخلقه القدر في الانسان كان قد حققه في الوعي والشجاعة . وهنا كانت تكمن سعادته كلها في ان يعيش وان يموت . هذا الموت الذي كان قد نظر اليه بهلع وحشي ، كان يدرك ان الخوف منه كان يعني الخوف من الحياة . كان الخوف من الموت يبرر تعلقاً لا حدود له بما هو حي في الانسان . وجميع الذين لم يسبق لهم ان صفوا الاعمال الحاسمة ليرفعوا حياتهم ، جميع أولئك كانوا يخافون العجز ويمجدونه ، أولئك جميعاً كانوا يخافون الموت ، بسبب العقوبة التي كان يحملها الى حياة لم يسبق لهم ان امتزجوا بها. لم يكونوا قط عاشوا بما فيه الكفاية ، لكونهم لم يعيشوا قط . وقد كان الموت أشبه بحركة تحرم من المــاء الى الابد المسافر الذي كان قــد بحث عبثاً لينتقع ظمأه . اما بالنسبة للآخرين ، فقـــد كان الموت الحركة المقدرة الحنون التي تمحو وتنفي ، باسمة للعرفان مثل بسمتها للتمرد .

وأمضى يوماً وليلة جالساً على سريره ، ذراعاه على طاولة السرير ، ورأسه بين ذراعيه . ولم يكن يستطيع ان يتنفس وهو مضطجع. والى جانبه ، كانت

لوسيان جالسة تراقبه من غير ان تنبس بكلمة ،وكان مرسو ينظر اليها احياناً. وكان يفكر بأن أول رجل سيأخذ قامتها من بعده ، سيجعلها ترتخي .

انها ستمنح نفسها وهي متجمعة كلياً في نهديها كما منحت نفسها له من قبل ، وسيستمر العالم في دفء شفتيها المنفرجتين . وكان احياناً يرفع الرأس وينظر عبر النافذة . لم يكن حليقاً . وكانت عيناه المحمرتان عند جوانبها ، الغائرتان بعمق ، قدم فقدتا ألقهما الداكن وكانت وجنتاه المجوفتـــان الشاحبتان تحت الزغب المزرق تبدلانه تماماً .

وكانت نظرته ، نظرة القط المريض ، تستقر على الزجاج . كان يتنفس ويلتفت نحو لوسيان . عندها كان يبتسم ، وفي هـــذا الوجه الذي كان يهرب وينهار في كل جهة ، كانت تلك الابتسامة القاسية الواضحة تخلق قوة جديدة ورصانة جذلى .

كانت لوسيان تقول بصوتها المنطفىء : « هل تتحسن » ؟

فيقول : « نعم »

وكان يرجع من بعدها الى ليل ذراعيه .

وعنـــد تخوم قوته وصموده ، كان يلتقى لأول مرة ومن الداخل ، رولان زغرو الذي كانت ابتسامته تغيظه كثيراً في بادىء الامر . وكان تنفسه القصير المتدافع يترك على رخام طاولة الليـــــل بخاراً رطباً كان يرد له حرارته . وفي هذا الدفء غـــير الرديء الذي كان يصعد نحوه ، كان يحس إحساساً أعمق بالطرف المثلج لاصابعه وقدميه . ان هـــذا بالذات كان يكشف حياة ، وفي هذه الرحلة من البرد إلى الحر ، كان يستعيد الحماس الذي كان قد تملك زغرو ، شاكراً « الحياة التي تسمح له بان يحترق بعـــد » . وكان يحس نفسه مأخوذاً بحب عنيف أخوي لهذا الرجل الذي كان قد شعر أنه بعيد جداً عنه ، وكان يدرك انه ، بقتله ، كان قد عقد معه عرساً كان يشده به الى الابد . وتلـــك

المسيرة الثقيلة للدموع التي كانت في نفسه كمذاق مختلط للحياة والموت ، كان يدرك انها كانت مشتركة بينهما . وفي جمود زغرو بالذات امام الموت ، كان يجد من جديد الصورة الخفية القاسية لحياته الخاصة . وكانت الحمى تساعده في ذلك ، ومعها ذلك اليقين المحمس الذي كان يملكه ليحتفظ بوعيه حتى النهاية وليموت وعيناه مفتوحتان . لقد كانت عينا زغرو هو أيضاً مفتوحتين في ذلك اليوم ، وكانت دموع تسيل منهما ، ولكنه كان آخر ضعف لرجل لم يكن له نصيب في حياته . وما كان باتريس يخشى هذا الضعف . ففي خفقات دمه المحموم الذي كان يتوقف دائماً على بعد بضعة سنتمترات من حدود جسده ، كان ما يزال يدرك ان هذا الضعف لن يكون ضعفه. ذلك انه ، هو ، كان قد قام بدوره ، وكان قد أتم واجب الانسان الوحيد الذي يتلخص في أن يكون سعيداً . ليس لمدة طويلة بلا شك . ولكن لا شأن للوقت بذلك ، انه لا يمكن أن يكون إلا عقبة ،وهو آنذاك ليس شيئاً . كان قد هدم العقبة ، وهذا الأخ الداخلي الذي كان قد ولـّده في ذاته ، سيان ان يكون سنتين أو عشرين .

نهضت لوسيان،وغطت من جديد كتفى مرسو اللتين كان الغطاء قد انزلق عنهما . وارتعش تحت هذه الحركة . منذ اليوم الذي كان فيه قد عطس في الساحة الصغيرة امام دارة زغرو ، حتى هذه الساعة ، كان جسده قد خدمه باخلاص وكان قد فتحه على العالم . ولكنه كان في الوقت نفسه ، يتابع حياة خاصة منفصلة من الانسان الذي كان يمثله . كان قد تابع خلال هذه السنوات تحللا بطيئا . اما الآن ، فقد أتم انحناءته ووقف مستعدا ان يترك مرسو وان يعيده الى العالم . وفي هذه الرعشة الفجائية التي كان مرسو يعيها ، كان يسجل مرة أخرى هذا التواطؤ الذي سبق ان منحهما كثيرا من المسرات .

وبهذه الصفة فقط ، كان مرسو يعتبر هذه الرعشة فرحة . كان هذا ، في وعيه ، ما كان يحب ، بلا تضليل ، وبلا جبن — وحيداً امام نفسه — وجهاً لوجه مع جسده — وعيناه مفتحتان على الموت . كان الامر يتعلق بقضية بين

رجال . لا شيء ، لا حب ولا ديكور ، بـــل صحراء لا نهائية من الوحدة والسعادة كان مرسو يلعب فيها آخر اوراقه . كان يحس نفسه يضعف . وقد تنشق جرعة هواء ، وبهذه الحركة هدرت جميع أراغن صــدره . كان يحس ربلتي ساقيه باردتين جداً ويديه عديمتي الاحساس . وكان النهار يطلع .

وامتلأ النهار الذي بزغ بالعصافير والنــداوة . وارتفعت الشمس بسرعة ، وبقفزة وصلت فوق الافق . واكتست الارض بالذهب والحرارة . وفي الصباح كانت السماء والبحر تتلاطخان بالاضواء الزرقاء والصفراء ، ببقع كبيرة واثبة. وكانت ريح خفيفة قــد هبت ، ومن النافذة كان هواء يحمل مذاق الملح يأتي ليرطب يدي مرسو . وعند الظهر توقفت الريح ، وتفتح النهار كثمرة ناضجة ، وعلى امتــداد العالم كله ، سال عصيرا دافئاً خانقاً ، وسط موسيقى زيزان مفاجئة . وتغطى البحر بهذا العصير المذهب كما يتغطى بزيت ، وأعاد الى الارض المسحوقة بالشمس هبّة حارة فتحته وصدت عطورا من الابسنت وندى البحر والحجارة الحارة . ومن سريره ، لاحظ مرسو هذه الصدمة وهذه المنحة ، وفتح عينيه على البحر الشاسع المنحني ، المتوهج المأهول بابتسامات آلهته . ولاحظ فجأة انه قد كان جالساً على سريره وان وجه لوسيان كان قريباً جداً من وجهه . وكان يصعد في داخله بهدوء ، ابتداء من البطن ، ما يشبه حصاة كانت تسير حتى حلقه . وكان يتنفس بسرعة متزايدة . ونظر الى لوسيان فابتسم من غير تشنج . وكانت هــذه الابتسامة تصدر من الداخل . وانقلب على سريره فأحس بالصعود البطيء في داخله . ونظر الى شفتي لوسيان المكتنزتين ، ومن خلفها ، ابتسامة الأرض . كان ينظر اليها النظرة نفسها ، بالرغبة ذاتها .

وفكر : « بعد دقيقة ، بعــد ثانية » . وتوقف الصعود ، وحجراً بــين الاحجار ، عاد في فرحة قلبه الى حقيقة العوالم الجامدة .

تمّت

عن الرواية

كان نشر « دفاتر البير كامو » قد قرّرته عائلة الكاتب وناشروه ، تلبية لرغبة العديد من الجامعيين والطلبة ، وبوجه عام جميع الذين يهتمّون بمؤلفاته وتفكيره .

إنهم لا يفتتحون هذه المنشورات من دون تحفظات : كان البير كامو قاسياً على نفسه ، وكان لا ينشر شيئاً باستخفاف ، فلماذا إذن تُعرض للجمهور رواية متروكة ، ومحاضرات ، ومقالات ، وملفّات وحتى مسودات لم يكن هو نفسه قد احتفظ بها كـ« كتابات معاصرة » ؟

بكل بساطة ، لأن المرء حين يحب كاتباً أو يدرسه بعمق ، يتمنى غالباً ان يعرف كل شيء عنه . واولئك الذين يملكون كتابات كامو غير المطبوعة يعتبرون تعسفاً مسرفاً عدم تلبية هذه الرغبة المشروعة ورفض السماح بقراءة « الموت السعيد » أو « يوميات سفر » مثلاً لأولئك الذين يرغبون في ذلك .

إن الجامعيين الذين قادتهم دراستهم احياناً في حياة كامو ، ليراجعوا كتابات صباه أو كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكنها غير معروفة إلا قليلاً أو التي لم تكن قد نشرت بعد ، يعتبرون ان صورة الكاتب لا يمكن إلا ان تتلوّن وتغتني بقراءة تلك الكتابات .

تكوُّن « الموت السعيد »

بقلم جان ساروكي

لن نلحّ في هذه المقدمة على المعطيات السيرية . فأهمّ ما ينبغي معرفته سبق ان قدّمه روجيه كيو في جزئيْ « البلياد» .ان«الموت السعيد» تستغل ذكريات الحي" الفقير ، في « بلكور » حيث قضى البير كامو طفولته ، وعمله في السمسرة البحرية ، ورحلته الى أوروبا الوسطى ، صيف عام ١٩٣٦،واسفاره في إيطاليا عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وإقامته في المصح، وحياته في بيت فيشو أو «البيت أمام العالم » ، في أعالي مدينة الجزائر ، حيث استقر في تشرين الثاني ١٩٣٦ . ونقرأ فيها ايضاً بعض الحوادث من حياته الغرامية . فان سنتي علاقاته الزوجيـــة وطلاقه من « سيمون هيا » الذي تم في سلزبورج بعد مناقشة عاصفة ، كل ذلك قد صور هنا وهناك شخصية نسائية ، ليس من السهل تحقيق هويتها ، تلعب هنا دوراً رئيسياً . وتبقى هناك نقاط استفهام ربما محتها ذات يوم دراسة منقبة : من كانت لوسيان ؟ ورولان زغرو ؟ والدكتور برنارد ؟ الخ . . .

ويبدو هنا ان إقامة تطابق دقيق بين رواية وحياة ما ، أقل فائدة من رسم تخطيط تكوّن أدبي .

ان أول تنويه دقيق ، « في الدفاتر » عما سيصبح « الموت السعيد » هـــو

تصميم للقسم الثاني الذي لا يمكن إلا ان يكون لاحقاً للرحلة إلى أوروبا الوسطى. والمخططات الاخيرة « للموت السعيد » يرجع تاريخها الى عام ١٩٣٨ . واننا نجد ايضاً اسم مرسو في كانون الثاني ١٩٣٩ ، ولكن « الغريب » هو مـــا يهم كامو منذ ذلك الحين . وهكذا فإن « الموت السعيد » كانها قد صممت وحررت من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ . انها معاصرة لأبحاث « الظهر والوجـــه » في شكلها الأول ، وأبحاث « الاعراس » في تحولاتها الأخيرة . وتليها الكتـــابة الأولى ا « كالغولا » .

ولكي تتكون لدينا احسن فكرة ممكنة عن الطريقة التي أعدت بهـــا هذه الرواية ، يمكننا ان نتفحص أولاً الشكل النهائي للرواية . «الموت السعيد» تقسم الى قسمين ، كل واحد منهما يحتوي على خمسة فصول : « الموت الطبيعي » ثم « الموت الواعي » ولكن على امتداد مئة واربعين صفحة مطبوعة على الآلـة الكاتبة ، لا يحتل القسم الأول سوى ٤٩ صفحة ، اكثر من الثلث بقليـــل . وعقدة « الموت الطبيعي » هي قتل رولان زغرو . فالبطل مرسو يقتـــله في الفصل الأول ، ويستولي على ماله ، (ويصاب بالبرد) وهو عائـــد الى بيته . والفصول التالية هي عودة الى الوراء : عن حياة مرسو العادية (الفصل الثاني) وعلاقاته بمارت وغيرته الجنسية (الفصل الثالث) وحديثه الطويل مع زغرو (الفصل الرابع) واخيراً حوار كان قد اجراه مـــع كردونا البراميلي الذي تروى قصته البائسة (الفصل الخامس). ولكي نوجز فيما نعطي الخيط الهادي نقول : إن باتريس مرسو عامل بسيط ذو حياة معدمة ، له جار براميـــلي ذو حياة اكثر اعداماً ، وعشيق فتاة كان لها العاجز رولان زغرو العشيق الأول ، فيعقد بفضلها ، علاقات معه ، ويعرف ، وهو يحدثه ، كيف كون ثروتـــه ، ويستغل هذا البوح ، فيقتله . ويقوم برحلة وهو منهار الصحة ولكن مـــلىء الجيب .

والفصول الخمسة « للموت الواعي » تمثل إقامـــة مرسو في براغ (الفصل الأول) ومتابعة سفره وعودته ، بطريق جنوى، الى مدينـة الجزائر (الفصل الثاني) وحياته في « البيت أمام العالم » (الفصل الثالث) ورحيله الى جبـل شنوة حيث استقر في بيت بمواجهة البحر (الفصل الرابع) واخيراً اصابتـــه بداء الجنب وموته (الفصل الخامس) . ولكي نعطي الخط الهادي نقول : إن مرسو ، في براغ ، يحس السعادة تفلت منه . انه يسترد مذاقها وهو يعود نحـو الشمس . وإذ يعود الى مدينة الجزائر، يحاول تجربتين متتابعتين لحياة سعيدة : اولا في حياة مشتركة مع ثلاث صديقات في « البيت أمام العالم » ، ثم في عزلة زهدية ، مخففة بزيارات أمرأته لوسيان او بزيارات صديقاته الثلاث في جبـل شنوة . ولقد اكتسب السعادة واحتفظ بها حتى في موتـه وهو يتذكر زغرو .

هذا الموجز السريع للرواية يوضح الموضوع الرئيسي : كيف يكون الموت سعيداً ؟ اي كيف يمكن ان يعيش المرء سعيداً الى حد يصبح فيه الموت نفســه سعيدا .

من هذا المفهوم للعيش الهنيء والمـــوت السعيد ، يبدو القسم الأول ظهر الرواية بسبب فقدان المال ، والوقت والسيطرة العاطفية . والقسم الثاني، بفضل الاستقلال المالي، وتنظيم الوقت وسلام القلب ، هو وجه الرواية : هذا هـــو، باختصار، محتوى ومعنى « الموت السعيد » في شكلها النهائي .

والتقسيم الى قسمين هو متأخر جداً. فجميع تخطيطات التصميم بلا استثناء، حتى عام ١٩٣٨ ، تشكل ثلاثة أقسام ، والتلمسات لا تقـــوم إلا على توزيـع الفصول . لذلك فنحن لن ندهش باللاتماثل (٤٩ صفحة مقابـــل ٩١) الذي ينفجر في التصميم النهائي . والتقسيم المثلث ، كما يشهد في ذلك مشروع معنون « إعادة التوزيـع » ، كان اكثر توازناً : فكل قسم كان بامكانه ان يضم تقريباً عدداً مماثلاً من الصفحات .

والتصميم النهائي يبرز مفارقة راسخة . وليس الأمر كذلك في التخطيطات الأولى. ومع ذلك، فان المفارقة، والتعاقب يبدوان، على الفور، النابض الجمالي للرواية ، كما انهما نابض فلسفة كامو. وفي ملاحظة يقترح فيها رواية ست قصص:

قصة اللعب الباهر : ترف .

قصة الحي الفقير . موت الأم .

قصة « البيت امام العالم »

قصة الغيرة الجنسية

قصة المحكوم بالموت .

قصة الهبوط نحو الشمس .

يكشف بترتيب العد بالذات ، همّ التعاقب هذا . فالقصص الست يمكن ان تتزاوج ثناء . ولكن حتى شهر آب من عام ١٩٣٧ يحاول ان يضاعف مفارقة القطبية بمفارقة الزمن : فبعض الفصول ستكتب بصيغة الحاضر، وأخرى بصيغة الماضي . وحتى انه حاول ، في تصميم مفصل للقسم الثاني ، ان يجعل الأزمان تتابع وفق تشبيك صارم. وسيتخلى عن هذه الشكلية التى لا تسندهـا ضرورة داخلية . ولكن اثراً يظل منها في النص النهائي: فان الفصل المكرس «للبيت امام العالم » وهو استحضار سعادة نقية ومتصلة ، ظل مكتوباً بصيغة الحاضر كما كان في المشروع الأولي .

والقصص الست التى ذكرت سابقا بشكل العدة الاولى التي منها ستتألف الرواية شيئا فشيئا. وباستطاعتنا ان نعيد تخطيط تكوّن الرواية بدءاً منها ومن تحولاتها وتوزيعها .

فالتصاميم الاولى تؤكد على «قصة البيت امام العالم» الذي يحتل، مـع قصة الغيرة الجنسية «القسم الثاني ». وهذا هو التصميم الأول الذي نقرأه في «الدفاتر».

القسم الثاني :

أ – في الحاضر .

ب – في الماضي .

الفصل ا. ا. البيت أمام العالم. تقديم .

« ب. ا. كان يتذكر . ارتباطه بلوسيان .

« ١ – ٢ البيت امام العالم . صباه .

« ب . ٢ لوسيان تروي خياناتها .

« ١ – ٣ . البيت امام العالم . دعوة .

« ب. ٤ غيره جنسية . سالز بورغ . براغ .

« ١ – ٤ . البيت امام العالم . الشمس .

« ب ٥ الهرب . (الرسالة) مدينة الجزائر .

يأخذ بردا ، ويمرض .

« ١ – ٥ . ليل امام النجوم . كاترين .

فالقسم الأول مكرّس اذن ، كما نرى ذلك في تصميم لاحق في آب ١٩٣٧ ، للعب – المزدوج للحى المتألق الفقير : ما يعنيه اللعب المتألق ، فان خرافة سيزيف ستكشفه فيما بعد في الثلاثية الدونجوانية ، المهزلة والانتصار . هذا اللعب يقاوم صروف حياة « الحى الفقير » . وإذ ذاك يرتسم تضاد مزدوج يفضحه مشروع في شهر آب نفسه ١٩٣٧ :

القسم الاول : حياته حتى الآن .

القسم الثاني : اللعبة .

القسم الثالث : التخلي عن التسويات والحقيقة في الطبيعة والحياة « حتى الآن » تتضمن الفقر ، ساعات العمل اليومي الثماني، تفاهة العلاقات الاجتماعية ،

وبالاجمال نمط من الوجود الزائف و « اللعبة » التي تشير إليها « الدفاتر » إشارة مقتضبة جداً ، من المفروض أن تعني نوعاً من التأنق ، تقدماً على الحياة الفقيرة، اندفاعاً في التلذذ بالذات، ولكن زيفاً ايضاً. هذا التضادّ في النصّ النهائي «للموت السعيد » يفقد من أهميته، إذ يكون مخفقاً في الحوار ومقتضباً في ترقي مرسو. وبالمقابل فإن اكتساب الصدق والصفاء، بحركة هرب إلى العزلة والطبيعة ، يتمثل منذ التخطيطات الأولى ويبقى حتى آخر لحظة من الإعداد نهاية الرواية وغايتها.

ولكن يبدو أن « الموت السعيد » لا تنتهي في التخطيطات الأولى ، بموت البطل ، فنحن نقرأ في أحد التخطيطات هذه العبارة. «مذاق الموت والشمس» انه ليس سوى مذاق . وفي تصميم آخر ، نرى الموت مجابهاً ولكنه يقع في نهاية القسم الأول . الفصل الأخير « هبوط نحو الشمس والموت » (انتحـار موت طبيعي) ملاحظة يجدر تسجيلها . الموت والشمس على صلة فيما بينهما . وحـين تحل السعادة ، التي هي اسطورة أخلاقية ، محل الشمس التي هي صورة حسية فإن خطوة حاسمة ستـُتجاوزُ نحو المفهوم النهائي . وباستطاعتنا أن نؤرخ هذه الخطوة بشهر آب ١٩٣٧ وبالملاحظة التالية : الرواية : الانسان الذي فهم انه ، لكي يعيش، عليه أن يكون غنياً ، والذي يمنح نفسه كلها لهذا الكسب للمال ، ينتج منه ، ويعيش ويموت سعيداً » ولأول مرة ، « في الدفاتر » نلتقي بموجز حقيقي « للموت السعيد ». وهنا ، ولأول مرة ، نجد فيها كلمة « رواية ».

الخيط الهادي من الآن فصاعداً واضح : سيكون تمثيــلا مقلوباً للمثل : « المال لا يصنع السعادة » . السعادة بالمال . تصبح الموضوع الرئيسي ، كما يبدو ذلك بوضوح في مقدمة الملاحظة المؤرخة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ :

١٧ تشرين الثاني .

إرادة السعادة .

القسم الثالث تحقيق السعادة .

ولكن في هذه اللحظة تدخل فجأة شخصية زغرو الذي لا يمثل بعد سوى « العاجز » لينير أمام مرسو مشكلة العلاقات بين المال والزمن ويكشف له حقيقة تعبير مثل آخر : الزمن هو المال . وهذه العبارة صحيحة أيضاً بشكلها المقلوب . المال ، هو وقت سيشكل مادة أساسية من فنه للعيش ، ويدل عليه المقطع الأخير من ملاحظة ١٧ تشرين الثاني :

« بالنسبة لرجل « كريم النسب » ، ان يكون سعيداً ، معناه ان يسترد مصير الجميع لا بإرادة الزهد ، ولكن بإرادة السعادة . لكي يكون المرء سعيداً — يلزمه وقت ، كثير من الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . والوقت انما تسرقه منا حاجتنا إلى المال . ان الوقت يُشترى . وكل شيء يُشترى . ان تكون غنياً ، هو أن تملك وقتاً لكي تكون سعيداً عندما تصبح جديراً بأن تكونه . »

إذن فإن مواد الرواية المختلفة تعود فتتجمع حسب مزدوجة الوقت الضائع والوقت المكتسب . وسيكون الوقت الضائع هو وقت الفقر ، والعمل ، والحياة التافهة : الفصل المكرّس لحياة مرسو سيحمل عنوان « قتل الوقت » وهو عنوات يتناسب والعلاقة مع مارت والمرحلة الى أوروبا الوسطى . وقتل زغرو سيضع حداً لهذه الاوديسة اليائسة للوقت الضائع . والوقت المكتسب سيكون وقت « البيت أمام العالم » ووقت الهرب في الطبيعة . ومن هنا ، على ورقة مخطوطة ، مشروع تصميم من ثلاثة أقسام يصبح الفصل الأساسي منها ، كل مرة ، مهدىً للوقت . القسم الأول يحتوي على سبعة فصول ، ابتداء من « قتل

الوقت» تضم حيـــاة مرسو في مغامراته في مدينة الجزائر حتى من عودته براغ (اي الصفحات الممتدة من ١ الى ٧٥ من النص النهائي) كتب كامو: من « قتل الوقت » حتى .. كان نفسه مخلوقاً للسعادة » . هذه الجملة الأخير توجد تقريباً كما هي في الصفحة ٧٥ من النص النهائي : « وأدرك أخيراً انـــه كان مخلوقاً للسعادة » .

والفصل الأول من القسم الثاني يحمـــل آنذاك عنوان « ربح الوقت » — والحديث هنا يتناول «البيت أمام العالم .»

والفصل الأول من القسم الثالث ، يحمل عنوان الوقت الضـــائع ، وقت العمل ، الى الوقت المكتسب ، وقت البطالة بين فتيات « البيت أمام العـالم » المزدهرات، الى الوقت المستعـــاد الذي هو وقت التوافق مع الطبيعة في العزلة والموت ، وهذا ما توجزه إشارة موجزة على المخطوطة من الصفحة الأخيرة : « الوقت» يقوم اولاً بكثير من الاشياء ثم يتخلى عن كل شيء. لا يقوم بشيء بشكل صارم . ويتبع سير الزمن وخاصة الفصول (اليوميات !) إن الوقت الذي أصبح تحت شعار السعادة ، موضوعاً رئيسياً ، يمنح الرواية هيكلها وإيقاعهـــا . وتناوب الحاضر — المـــاضي ، في التخطيطات الأولى، لم يكن مستغرباً . والآن ، من الوقت المسحوق في الجزء الاول الى الصيرورة الترجيعيّة في الجزء الثالث ، ينبغي على تطوّر منحى الرواية ان يمر ويلتقي بالتعريفات الواهنة ذات النبرات الغنائية .

وهكذا نصل الى آخر تحول للرواية ، يقلّصها إلى قسمين . وهذا التقلّص ُيفسر بسببين :

أولا ارتباكات كامو إزاء موضوع الحوادث المشقية والعاطفية . فكان عليه ان يضغطها . وفي المشروع الآنف الذكر ، كان القسم الثـاني ، بعد « كسب

الوقت » يملن « لقاء لوسيان » ثم « رحيل كاترين » ولم يستطع ، أو يريد ، من هذه الزوايا، ان ينظم ما يكفيه من المواد ثم أصبحت حادثة زغرو أقل تماسكاً من ان تشكل نواة نظام . والهرب الى اوروبا الوسطى ، الذي كان في الأساس مرتبطاً بالغيرة الجنسية ، ضُم إليها .

ولكن كامو شديد الحرص على اقسامه الثلاثة : ومن هنا ، هـــذا التصميم أيضا . الأخير قبل « الضغط النهائي » .

القسم الأول :

١ – الحي الفقير ..
٢ – باتريس مرسو .
٣ – باتريس ومارت .
٤ – محذوف يكاد لا يقرأ: ب. وأصدقاؤه (؟)
٥ – باتريس وزغرو

القسم الثاني :

١ – قتل زغرو .
٢ – هرب في القلق .
٣ – رجوع إلى السعادة .

القسم الثالث :

١ – النساء والشمس .
٢ – السعادة الخفية الحادة في تيبازا
٣ – الموت السعيد .

العنوان النهائي وجد ، ولكن مطبقاً على الفصل الأخير . وحادثـة زغرو ليست بعد في مكانها الصحيح . ويبقى نقل القتل ، في الأخير ، باديء الأمر ، ثم في مطلع القسم الأول . وإذ ذاك اصبح القسم الثاني ، المقصور على الرحلـــة والعودة ، هزيلاً اكثر مما ينبغي. فدمج مـع القسم الأخير ، وأقرّ عنوان مشترك « الموت الواعي » الاندماج ، مستدعياً عنواناً موازيـــاً « الموت الطبيعي » . وبالمقابل ، فالفصول التي كانت تحمل عنوانا خاصاً فقدتـــه . فالعنوان الذي دعي « البيت أمام العالم » . ثم « النساء والشمس ، ثم النساء والعالم » يـــلي من من الآن فصاعداً من غير اخطار ، في الضوء المستهجن بصيغة الحاضر يلي حكاية العودة من براغ .

وهكذا أعيدت كتابة الرواية « باعادة كتابة رواية » ألزم كامو نفسه في حزيران عام ١٩٣٨ — وقد انجزت ، أو على الأقل ، عدلت ، حتى اصبحت « الموت السعيد » .

لماذا لم تنشر؟ لن نقف هنا إلا على اسباب أدبية بحتة . فالسيد م . كاسكس ، في دراسته عن «الغريب» ، يفترض ان هذه الرواية ، في المشروع المتخيل لكامو ، قد حلـّت محل «الموت السعيد» ويرى في شهر آب ١٩٣٧ ، اللحظة الحرجة التي انسل فيها خفية موضوع «الغريب» ، فيما كانت تتكوّن ، وهو يورد هذا النص :

«انسان يبحث عن الحياة في المكان الذي توضع فيه عادة (الزواج ، المركز ، الخ ..) يلاحظ دفعة واحدة ، وهو يقرأ فهرست الدُرجة[1] ، كم كان غريباً عن حياته (الحياة كما هي مقبرة في فهرست الدرجة) يعطي الصيغة الأولى للموضوع بالرغم من أنه يتعلق بالموت السعيد .

---

(١) الدرجة هي الكلمة التي وضعها قاموس «المنهل» مقابل كلمة « المودة» Mode الاجنبية .

هذا الافتراض مقبول . ويمكن تقويته بملاحظة على القيمة الروائيــة للموت السعيد .

يبدو ان كامو ربما احس، كلما كان يتقدم في تأليفها ، بالعيب المبطل لروايته الأولى وامكانية روائية اخرى .

انه عمل سيء التأليف ومكتوب بشكل مدهش في آن واحد ، كما يلاحظ ، روجيه كييو . وليس هناك افضل من هذا الكلام . ان صفات الكاتب الانيق العبارة تتفجر هنا ، ولكن ليس صفات الروائي . وكامو يحاول عبثاً ان ينظم فيها ويوحد عناصره المشتتة ، فاية علاقة توجد بين القتل المتخيل لزغرو وحكاية رحلة براغ الواقعية ؟ بين تصوير كردونا البائس وتذكر «البيت أمام العالم» ؟ ان التشتت في النغمات يجعل تشتت الحوادث اخطر فلا نستطيع ان نجد له عــذراً استناداً الى حس مدروس للمفارقة : فالمؤثر ، والبشاشة ، والابتذال ، والجفاف التصويري ، والحرارة الحسية والغنائية الشمسية تتعاقب من غـــير ان تكون متطابقة . والحوادث اكثر عدداً مما ينبغي واحياناً تستعمل بتكرار نافل،فبعد موت أم مرسو،مثلاً، فرض علينا موت أم كردونا. والأدوار النسائية خاصة ، وزعت توزيعاً سيئاً . ففي « ثلاثية » الحمقاوات » تبرز كاترين التي في الأساس ـ كما تظهر ذلك التصاميم الأولى، كانت على علاقة مع مرسو . ولكن لوسيان كانت تستطيع ان تتصف بالميزة ذاتها . والتصاميم تنبيء بعلاقة تارةمع هــذه وطوراً مــع تلك . ونقرأ فيها كذلك اسم امرأة تدعى لوسيل . ومارت ، كما نرى من ذلك بمقتضى احد التصحيحات ، تحل محلها وتضطلع بقسم من دوري لوسيان وكاترين ، وتكون علاقة الزمن الضائع ، وكاترين علاقة الزمن المسترد . بالطبع ، ليس كامو بوضع مريح مع نسائه . إنهن يؤخرن (تطور) الرواية . إنهن يقدمن تجسيداً ادبياً للمثل : من يطمع بالكثير يفوته اليسير .

ونحس، في النص النهائي ، جهـــده ليثبت اختصاصات كل منهن وليحتفظ

بآثارهن او ليدبر دخولهن الى المسرح . والنتيجة عاطلة رديئة : أكان بوسعه ان ينتج اثراً أفضل ، لو بذل مزيداً من العمل ؟

ان «الموت السعيد» ، بصفتها رواية ، مدانة في أساسها . فصفة الرواية ، كما نقرأ من كتاب حديث عن النوع الروائي[1] «تتعلق بالتوتر الذي تتحدفيه الملاحظة الدقيقه وتصحيح او تعميق الواقعي بالمتخيل» ولا تشذّ عن هذه القاعدة ايـــة رواية ، بينما في «الموت السعيد» ، تظل عناصر الملاحظة ، اي مقاطع السيرة الذاتية ، تظل متفككة . فذكريات الحي الفقير ، والمصح ، والبيت امام العالم ، والرحلة الى أوروبا الوسطى ، والوجوه النسائية ، ليست بالمعنى الكيماوي معالجة لتندرج في « كل » في عالم مغلق موحد » شبيه بعالم بروست الذي يتخـذه كتاب كامو « الانسان المتمرد » نموذجاً ، وتلك العناصر لا تشكل كلاً الا حـــين يستعيدها الخيال الخلاق . بيد ان الخيال الخلاق ، في « الموت السعيد » لا يعمـل إلا على مستوى الاسلوب . واختراع الحوادث والاشخاص فقير جدا : فقتل زغرو ، المستوحى من الوضع البشري او الجريمة «والعقاب» وشخصه نفسه ، لا يفضيان الى الحقيقة الروائية . وفي هذه الرواية المستحيلة ، تبقى القيمة فقط للمشاهد الحية ، التي تخرج من وريد « الظهر والوجه » . ولا تتميز بالشكل عن « السخرية » او « الحزن العميق » ، او الذكريات الغنائية التي تنتمي الى ذكريات «اعراس» . ان احسن ما في الرواية ليس روائياً .

هل احس كامو ذلك بمثل هذا الوضوح ؟ انه لا يعترف بذلك في اي مكان . ولكنه اكثر من محتمل ان شعوره الباطني كفنان على الأقل كان ينبهه الى خطئه ويقوده ، بلا علمه ، في طريق اخرى . ولكي نستعير من جيد تشبيهاً موحياً يورده فنـــان طبيعي ، لطبيعي ، فان في نَقْنَقة « الموت السعيـــد » برقانة «الغريب» . وكانت «الموت السعيد» تتابع تكوّنها الخدّاع ، وكان مؤلفها يتفنن في اعادة كتابتها واعادة احيائها في جميع اجزائها ، ولكن «الغريب» كمتطفلة موحى بها كانت تستمد افضل مكاسب هذا العمل الذي اعطى ، اخيرا ، بدلاً

(١) « الرواية حتى الثورة » تأليف هـ . كوليه .

من روايه مزيفة ، قصة حقيقية .

واذن فاننا سننهي هذه الدراسة باقامة توازن موجز بين « الموت السعيد » و«الغريب». فقد دل روجيه كييو ان «مرسو هو. الأخ الاصغر لمرسو». واشار الى ان بعض الحوادث والاشخاص الثانويين هم مشتركون للنصين. ولكنه لاحظ الفروق واستطاع ان يكتب : « ان الحبكتين هما بلا ادنى علاقة . أو « الموت السعيد» ليست على الاطلاق رحم «الغريب» : انه كتاب آخر تماماً ».

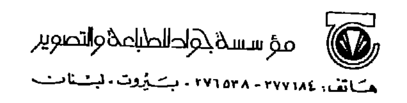
ومع ذلك، فبالرغم من فروق الحبكتين الحتمية وطريقة التأليف والغاية، نستطيع ان نرى، في «الموت السعيد»، تجسيداً مسبقاً «للغريب» حتى ولو سحبنا من اللفظة معناها الحياوي، رحما . ويكفي ، لنقنع بذلك ، ان نقارن بنية الكتابين : فالموت السعيد في آخر تحولها انتهت بقسمين . والمرور من التقسيم الثلاثي الى التقسيم الثنائي يعني بالنسبة لكامو، العدول عن التقطيع الكلاسيكي، حيث ترعى عملية تأليف المتناقضات لصالح جدلية اكثر ذاتية توضع فيها المتناقضات ضمن «دارة صغيرة Court circiut. من وجهة النظر هذه ، لا تبدو « الغريب » الا نسخة مكزوزة « للموت السعيد » فهي مؤلفة من قسمين ايضاً ، ونفس عدد الفصول تقريباً (٦و٥ مقابل ٥و٥). وتصميم القسم الأول ، في كلا الكتابين ، هو نفسه بطريقة محسوسة . مشاهد من الحياة التافهة ، ثم الحديث مع الرجل مالك الكلب (سلمانو او كردونا) ثم قتل زغرو أو العربي . هذا القتل يدفع البطل من الزيف الى الحقيقة .

فان كلاً من القسمين ليس بينهما في الظاهر شيء مشترك . صحيح ان الرحلة الى براغ او البيت أمام العالم، وهي عناصر لا تهضم في رواية رمزية، قد اختفت من «الغريب» . ولكن لنتأمل مرسو في عزلته في جبل شنوة ، ومرسو في سجنه في مدينة الجزائر ، فسوف نكتشف تشابهاً في ايقاع الزيارات التي تسليهما، والفصول التي تثير مشاعرهما ، والوقت غير الوزون الذي يقودهما الى ساعتها الاخيرة. وإذا كان مصيرهما يبدو متبايناجدا لأن احدهما قد ارتكب جريمة كاملة استفاد منها

بينما الآخر ، وهو قاتل لا موهوب ، اصبح فريسة القضاة ، فيجب ان لا ننسى ان مشكلتها كليهما هي مشكلة الموت السعيد-«الغريب» او « الرجل السعيد» تحمل في عنوان فرعي مخطوطة واحدة - وانها حلاّها كلاهما بطريقة مظفرة، وهما يمنحان نفسيهما للعالم ويتحرران من الناس .

ولا نفعل هنا إلا ان نقيم تشابهاً تستطيع دراسة جادة ان تعمقه ، شريطة ان تهتم بالمادة اقل من اهتمامها بطريقة هذين الكتابين. وتفوق «الغريب» لن نكون بذلك الا اكثر وضوحا . ولكن هل هناك حاجة الى القول اخيرا، ان «الموت السعيد» ،التي لم ينشرها ، هي وثيقة ، اكثر مما هي عمل ادبي ، وانه يكفيها مجدا ان تتمثل في هذه الوثيقة ، لكي تنضاف الى ملف عبقريته ادلة ايجابية ؟

أننا نترك للقارىء متعة اكتشافها .



مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ - بيروت - لبنان



حين صدرت هــذه الرواية في باريس احتلت بسرعة رأس قائمة أنجح الكتب . ولم يسبق لهــذه الرواية أن نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من أوراقه . وبالرغم من أن هناك شبهاً في الأسماء بين بطلي « الغريب » و « الموت السعيد » فهــذه الأخيرة تختلف عن تلك كــل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمــن ذلك ارتكاب جريمة . وأحداث الرواية تتناول تجربة شاب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والمــرض والحــب والرحلات ، ويعيش حالات صراع نفسية ليس هناك أبرع من كامو في تصويرها .

الثمن : ١٥ ل. ل. او ما يعادلها